الأسير رقم ١٣

حاسب بستان الخميسي

الكتاب : الأسير رقم ١٣ (رواية)

المؤلف : حاسب بستان الخميسي

الطبعة الأولى : القاهرة ٢٠١٧

رقم الإيداع: ٧٢٦٧ / ٢٠١٧

الترقيم الدولي : I.S.B.N: 978 - 977 - 493 - 265 - 6

الناشر

شمس للنشر و الإعلام

٩٥٥٩ ش طارق أبو النور. الهضبة الوسطى. المقطم. القاهرة

ت فاكس : ٢٧٢٢٣٨٠٠٤ (٠٢)، ٠١٢٨٨٨٩٠٠٦٥ (٠٢)

www.shams-group.net

تصميم الغلاف : ياسمين عكاشة



الأسير رقم ١٣

رواية

حاسب بستان الخميسي

شكر وتقدير

(ما زاد عن حدِّه ؛ انقلب ضدّه) ،

مقولة سمعتها وما زلت أسمعها ، ومقتنع بها نوعًا ما ،

لكن معكِ يا حبيبتي وما جاء منك ؛ وإن زاد عن حده ؛

زاد وده ، ولم ينقلب ضده..

إلى زوجتي الحبيبة

سناء صلاح

إهداء

إلى كل من عاش ويلات الحروب...

واكتوى بنارها

المقدمة

تتناقل الأخبار كل ما هو سيء عن الحروب وآثارها؛ مع أنها لا تخلو من ومضات نور لا يخبو بريقها، تختلف تمامًا عن ومضات فوهات المدافع ذات البريق المتلاشي.

المؤلف

الجزء الأول

قيدوني معهم

في البداية... قد يخيب الظن بما كان منا وما آل إلينا ...

لا يجب أن تطوينا الظنون وتكوينا الآلام، ونرفع رايات اليأس

السوداء ، فربما تنقلب النتائج، لننتظر حتى النهاية...

حاسب الخميسي

كان في الثامنة والعشرين من عمره، شاب طويل القامة عريض المنكبين، مستوي البطن ضخم الرأس والجثة بانتظام وتناسق، يشرق نور الأمل الساطع من خلال بريق عينيه النرجسيتين، له همة ونشاط في حركته وعمله لا يملكها إلا القليل من الرجال في مثل عمره، لولا ضعف واضح مع الأسف في بصره في كلتا عينيه، نتيجة إصابته بالجدري عقب الفيضان الكبير الذي أغرق السهل الرسوبي في وسط وجنوب العراق بعد شهور قليلة من ولادته.

ضعف يعيق عمله وممارساته اليومية، ويقلل من سرعته ويثقل خفة حركته، ومع ذلك تمكن من إنهاء دراسته الجامعية الأولية وحصل على البكالوريوس في التاريخ من جامعة بغداد، فهو إذن ليس أعمى تمامًا، إنما هناك ضعف واضح كبير في قدرته على الإبصار، يتقدم معه ويزداد سوءًا مع تقدمه بالعمر؛ سنة بعد أخرى.

كان ضعف بصره سبب مباشر لالتجائه إلى حياة صارمة وصعبة، ملأها الخوف والحذر من الحوادث، كلها حوادث الطريق والعمل، لذلك كانت أسرته تقوم على خدمته في تدبير معاشه اليومي داخل المنزل وفي الأماكن التي يتواجدون فيها برفقته، مع

اعتماده على بعض الأصدقاء الموثوق بهم والمقربين منه خارج المترل لقضاء حاجته.

لم تكن له حاجات كثيرة، فقد كان أقصى ما يطلبه أثناء عمله في معمل النجارة الصغير الذي تملكه الأسرة، ويقوم هو بمعاونة والده فيه بتدبير الأمور الإدارية وتنظيم الحسابات الخاصة بالعمل؛ أن يحظى بمساعدة متواضعة وبسيطة من أحد العاملين معه بقراءة وتدوين الكتابات والأرقام الصغيرة جدًا، والتي لا يستطيع قراءتها أو كتابتها حتى باستعمال العدسة المكبرة أحيانًا، مع ذلك تدربت أصابعه على التمييز بين العدد والآلات وأشياءه الأخرى التي يحتاجها في ممارساته اليومية، مفسحًا المجال لحواسه الأخرى كاللمس والذاكرة على معاونته فما كان يفعل أكثر من أن يمد يده ويستخرج حاجته من موضعها متعرفًا عليها، دون الحاجة حتى إلى الضوء المناسب أحيانًا، وكانت حواسه الأخرى من القوة والنفاذ وهي عنده عماده الأول.

كان معمل النجارة معملاً صغيرًا نسبيًا، مكدسة رفوفه بالآلات والأدوات وعدة العمل، وتغص جنباته بمختلف أنواع الأخشاب كمًا ونوعًا، فهناك ألواح سميكة وثقيلة، وأثاث تم إنجازه في جانب، وأثاث لم يكتمل بعد في الجانب الآخر، عدا ما يرافقه من

التِرايش والقطع الخشبية الصغيرة المترسبة عن فضلات العمل، في الجهة اليمنى غرفة كبيرة نوعًا ما، في وسطها مخرطة خضراء صغيرة، وإلى جانبها منشار كهربائي يوحي وجودهما إلى أسلوب الحداثة في العمل، ونحن في الربع الأخير من القرن العشرين، في هذه الغرفة وعلى رفوفها كل آلات وأدوات العمل.. شفرات حادة لا تتشابه بأحجامها وأشكالها، لكنها تتشابه في الحاجة لها في إنجاز العمل خطوة خطوة...

وعند ركن المعمل غرفة أخرى بذات المساحة خصصت للشؤون الإدارية واستراحة العمال واستقبال الضيوف والزبائن، وفي أحد جوانبها يقوم مكتب (سلمان) بدفاتره وأوراقه وأقلامه وهاتفه، فوق المكتب علقت جدارية براقة لصورة «آية الكرسي»، المكتوبة بالحرف العربي الكوفي الجميل، وباللون الفضي البراق على رقعة من جلد الغزال المشذبة والمصقولة بعناية تامة، والمزججة بالجام الشفاف النقي، محاطة بإطار خشبي جميل يوحي بالقدم، خشب منقوش ومحفور بيد فنان ماهر ومطعّم بالنيكل والمطلي بلون ذهبي غامق، وكان سلمان يعتز بها كثيرًا لأنها من صنع جده رحمه الله.

لم تكن عجلة العمل في المعمل تدور قبل التاسعة صباحًا، فكان سلمان ينهمك منكبًا على دفاتره مزاولاً عمله اليومي المعتاد،

والذي يتناسى به ولو إلى حين؛ همومه الشخصية والهموم العامة المتناقلة والمثقلة بالأنباء الدامية من جبهات القتال شرق البلاد، عن الحرب المستمرة منذ سنتين مع الجارة الشرقية إيران.

يبدأ عمله اليومي بمراجعة الأعمال الإدارية والحسابية لليوم السابق، ويتأكد من صحتها وحسن انتظامها بمثابرة ورثها عن أبيه وحافظ عليها بحيويته الموفورة ونشاطه الطافح، لذا فهو يحب معمله والعمل به حبه للحياة في جو حافل بمساومات البيع والشراء وغير ذلك من ممارسات الحياة اليومية.

كان سلمان يمد نظره إلى الطريق العام المواجه لمكتبه عبر النافذة، حيث لا تنقطع حركة المارة وعربات اليد وسيارات الأجرة وسيارات الحمل الصغيرة، وذلك أثناء الاستراحة فقط، وكان يوصي عامله بإغلاق النوافذ عند العمل حتى لا يزعجه ضجيج الشارع أو يشد انتباه العمال إلى ما خلف الجدران.

عند الصباح يمارس تمارينه الرياضية الخفيفة، والتي اعتاد عليها قبل وجبة الإفطار التي يحرص على تناولها كل يوم بانتظام، ولن يتخلى عنها أبدًا، وكان شعاره يقول دائمًا:

– افطر بفطورك كله، وشارك صديقك بغذائك، وتنازل له عن عشاءك!.

ثم الخروج سيرًا على الأقدام مجتازًا الشوارع والطرق العامة والأزقة، نحو ساعة كاملة من الزمن ليمارس رياضة المشي المفضلة عنده، وبنفس الوقت يقطع الطريق بين منزله في الصدرية من رصافة بغداد إلى مقر عمله في الصالحية عند كرخها، إذ يتخلص من زحمة المواصلات وزحمة الشارع بها، بذلك يكون قد ضرب أكثر من عصفورين بحجر واحد.

لم يكن ينظر إلى مطامع الدنيا وملذاتها، ويماثلها مشبهًا لها بجرعات خمر مسكرة أو دواء مر مسكن، تأخذ عقل الإنسان وتسلبه إرادته وتخرج به عن الطريق المستقيم، وتشذ به عن الصواب، ويخسر بها دنياه وآخرته على حد سواء، إذا أضفنا إلى ذلك روحه المرحة ونكاته اللطيفة المنهمرة، وقدرته المدهشة على مخاطبة الناس وكسب ودهم، والتأثير على أي شخص يراه كأنه صديق قديم؛ لاكتشفنا سر الاحترام والحب الكبيرين والحفاوة التي يلقاها عند كل إنسان، ويلقاها كل إنسان عنده، مما يجعل حضوره شوقًا ومطلبًا ومرغوبًا فيه.

هذا هو سلمان وهكذا كانت حياته عادية بسيطة، مجردة عن كل ما هو غير طبيعي... رجل أمين صادق وفي بمواعيده، مخلص بعمله بار بوالديه، واقعي لا يعيش الخيال ولا يحب التكهنات والتوقعات، ناضج حسن السمات، أنيق، مشرق الوجه، لطيف المعشر، محبوب، محترم، من كل الناس الذين يحيطون به، ومع ذلك نقول الكمال لله وحده لا شريك له في ملكه، وله في خلقه شؤون: ولكن إلى أين ستسير به الأمور؟.

• • •

في أواخر عام ١٩٨٠، وبالتحديد في أواسط شهر سبتمبر/ أيلول؛ اندلعت نيران حرب ضروس بين العراق وجارته الشرقية إيران... وعلى طول الحدود الفاصلة بينهما والتي تجاوزت في طولها الألف والثلاثمائة كيلومتر... هذه ليست أول حرب بين الجارين وأرجو أن تكون الأخيرة!.

لقد كانت حروب جمة قبلها، منذ الأزل، ومنذ أيام البشرية الأولى... هؤلاء هم ملوك فارس وعيلام والصفويون والقاجاريون وآل بهلوي ومن جاء قبلهم وبينهم وبعدهم، لقد كانت موجات غزوهم تجتاح العراق دائمًا، تدمر مدنه وكل ما

على أرضه، كالوباء تقتل الناس بالجملة وتحرق الأخضر واليابس، لا ندعي كذبًا إنما هي نظرة متواضعة على جانب زمني ضيق من التاريخ النجس بين البلدين (راجع المصادر التاريخية).

وهو ليس ملكًا فيهم ولا سلطانًا عليهم ولا شاهًا منهم من لا تطرق جيوشه أبواب بغداد... لكنها هذه المرة حربًا ضروسًا استمرت ٨ سنوات بلا هوادة، لا ينقصها سوى ثلاثة أسابيع فقط... أحرقت الأخضر واليابس وهلك بها الزرع والضرع، حتى أنه لم يبقَ سوى ثلاثة ملايين نخلة على الجانب العراقي لضفاف شط العرب من أصل خمسة وأربعين مليونًا!

فما بال البشر الذين صيروا وقود رخيص لها ليحترق في لظاها الملايين، نعم الملايين من خيرة الشباب المقاتل في كلتا الدولتين، الشباب الناهض توًا ليسير بخطوات ثابتة في طريق النور نحو مطامحه وآماله وتطلعاته لمستقبل أفضل لهم ولذويهم، والدولتين على حد سواء، ناهيك عن ضحاياها من المدنيين داخل المدن والقرى البعيدة عن خطوط القتال الأمامية.

ففي العراق باعتباره الطرف الأصغر مساحة، والأقل في عدد السكان من الطرف الآخر في الحرب إيران؛ وبنسبة ١ إلى ٤،

استدعت القيادة العسكرية العراقية جميع الرجال من عمر ثمانية عشر عامًا وحتى الأربعين في الخدمة العسكرية المباشرة في الجيش العراقي، وزجت بهم في آتون المعركة، ولكن هذا لا يكفي أبدًا، فالجيش الإيراني ما زال أكثر عددًا وعدة، الفرق بينهما كبير جدًا، وجبهة القتال طويلة طويلة طويلة.. وتضاريسها ليست متشابه أبدًا، تبدأ بالمرتفعات الثلجية الشاهقة في أقصى الشمال، وتمر بأراضي مروج ومراعي وشبه مرتفعات وعرة وصحاري، ثم بعد ذلك أراضٍ طينية رخوة تغمرها مياه الأهوار والمستنقعات المزدحمة بنبات البردي، حتى تنتهي أخيرًا بشط العرب الحاجز المائي بينهما، والذي عبرته جيوش الطرفين المتقاتلة أكثر من مرة.

وعلى هذا فإن نار المعركة تحتاج إلى المزيد من الرجال، الرجال الأقوياء الأشداء وقودًا لها، فقامت باستدعاء الذكور منهم تحت الثمانية عشر عامًا وفوق الأربعين حتى الستين للالتحاق بميليشيا الجيش الشعبي، ليقف خلف الجيش النظامي في المواقع الخلفية، وكذلك في المواقع التي لا يدور فيها قتال مباشر بين الجيشين النظاميين.

مع ذلك ما زال الفرق بائن وكبير، وقد أخذت ريح المعركة تهب بما لا تشتهيه القيادة العراقية، وبدأت الدائرة تدور على الجيش

العراقي الذي بدا متعبًا ومنهكًا وبمعنويات متقهقرة تدريجيًا بعد سنتين من المطاولة والصمود، وبدأت المعركة تراوح في مكانها، وقد تمكن الجيش الإيراني من استعادة الكثير من المدن والأراضي التي سقطت تحت سيطرة الجيش العراقي في الأشهر الأولى، على الرغم من أن الجيش العراقي كبد وما زال يكبد الجيش الإيراني يوميًا خسائر فادحة بالأرواح والمعدات، وهو كامن بأفراده في مواقعه الدفاعية، يصد بشجاعة عالية الهجمات الإيرانية العشوائية المعتمدة على كثرة العددية، ويفشل معظمها قبل أن يشن هجمات معاكسة لاسترداد ما فقده من مواقع، وهكذا دارت الحرب سجالاً.

في هذه الأثناء بدأ التاجر المفلس يبحث وينقب في دفاتره القديمة؛ الفوارق ما زالت هائلة بين الطرفين ويجب سد كل الثغرات التي قد ينفذ منها العدو.

وأخيرًا عثر التاجر المسكين على اليسير اليسير من المال ليسد به بعض حاجته، وذلك حين استدعت القيادة العامة للقوات المسلحة العراقية الرجال المسرحين من الجيش والخدمة العسكرية لأسباب صحية، أو من لم يلتحقوا بها أصلاً لنفس السبب،

وجميع المواليد المطلوبة في الوقت الحاضر مراجعة لجنة شرحبيل الطبية.

كان سلمان من بينهم... إذ سبق له أن تسرح من الخدمة العسكرية المسلحة وغير المسلحة لأسباب صحية، عَلم عِلم اليقين أن البيان الصادر من مديرية التعبئة والإحصاء في وزارة الدفاع العراقية يعنيه ويشمله، لذلك وجب عليه أن يراجع الدوائر الصحية العسكرية المعنية بتنفيذ القرار بالزمان والمكان المنوه عنهما في البيان، وإلا فسيعد هاربًا أو متخلفًا عن أداء الخدمة العسكرية، ويعرض نفسه للعقوبات الصارمة، وكذلك فإن واجبه الوطني يدعوه لتنفيذ أمر كهذا، فليس من الوطنية أن يتخلف عن أداء الواجب، وتذكر مقولة كان يرددها مع نفسه دائمًا:

- كلما سما الغرض كبرت المشقة...

فعلاً وصل سلمان إلى المكان المخصص لتجمع الأفراد المشمولين بتنفيذ الأمر، فوجدهم وقد تم توزيعهم حسب العاهة أو المرض الذي تسرحوا من أجله، وقد وجد أن معظمهم قد تجاوز الثلاثين من عمره وليس فيهم من هو أقل من الخامسة والعشرين إلا النزر

اليسير، لذا التحق هو بالتجمع المخصص لمرض العيون، وبدأ ينتظر دوره هناك.

يدخل أحدهم إلى غرفة الفحص حيث يجد لجنة الفحص بانتظاره، فيتأخر بضع دقائق ليخرج معظمهم بعدئذ متجهمي الملامح بوجوه مكفهرة، كأن خطرًا داهمهم أو أن أمر جلل حل بهم، وهنا التفت سلمان إلى من يجلس يساره وحدثه باستغراب بصوت يشبه الهمس:

– ما الذي يجري هنا، الجميع يحبس أنفاسه ؟!.

رد عليه جاره بنفس الأسلوب:

– إنهم قساة القلوب بقراراتهم الظالمة... إنهم يأمرون الأفراد بالالتحاق بالخدمة العسكرية بالرغم من كبر سنهم وصعوبة حالتهم الصحية، وعظم مسؤولياتهم المدنية، كل واحد منهم أصبح اليوم المسؤول والمعيل لأكثر من أسرة واحدة.

ثم اقترب من سلمان أكثر وهمس بأذنه:

– تصور؛ بالأمس التحق أحدهم بالجيش على الرغم من أنه شبه أعمى بصفة غير مسلح، وآخر أيضًا غير مسلح وهو بعين واحدة... أعور!.

فدهش سلمان وهمهم كأنه يحدث نفسه:

- أووووه أمر مريع... ومفزع!.

ثم تابع الرجل حديثه بهدوء وحذر:

- أخي... حالة مثل حالتك، أنت ستلتحق بالجيش بصفة سالم مسلح لا محالة... بالتأكيد.

بدا على سلمان أنه صدق حديث الرجل أو كاد، ووجد نفسه فجأة في حالة الجمع بين الأضداد، الوطنية من جهة، والخوف والتردد الذي بدأ بالاحتفال في داخله من جهة أخرى... إنه الخوف الذي يسبح في أعماق النفس البشرية، الخوف من المستقبل المجهول ليس أكثر، فردد على لسانه كلمات لا تشبه بالضرورة ما يدور في داخله:

- الله كريم... لننتظر ونرى كيف ستؤول الأمور، عسى الله أن يوفقنا جميعًا.

وهكذا استمر الحديث بين سلمان وجاره حتى جاء دوره ودخل غرفة الفحص، وهناك... ارتطم ساقه بمنضدة خشبية صغيرة فقلبها على الأرض بما عليها من أشياء، قدح فارغ، نفاضة سجائر يرقد على زجاجها المدغم بعض أعقاب السجائر تناثرت على الأرض وتبعثرت، وكاد هو يسقط بعد أن تعثر بنفس

المنضدة التي قلبها، فأمسك بيده عسكري برتبة نائب عريف وهو يتلقفه قائلاً بصوت مرتفع قليلاً سمعه كل من في الغرفة:

– تمهل.. تمهل.. تمهل قليلاً ولا تتعجل.. على كيفك...

فرد عليه سلمان وهو يرفع يده الأخرى مؤديًا التحية العسكرية:

– نعم.. نعم.. سيدي أرجو المعذرة...

قالها اعتقادًا منه أن الذي أمسك به ضابط!

– اجلس هنا على هذا الكرسي...

– نعم سيدي، تأمر...

فرد عليه النائب عريف بهدوء كأنه يعاتبه:

– لا تقل سيدي فأنا نائب عريف يا أخي... نائب عريف فقط ولست ضابطًا.

فرد سلمان مرتبكًا وقد أحس بالإحراج والمفاجأة يحيطان به:

– ها.. ها.. نائب عريف.. آسف.. آسف.. أرجو المعذرة.. عـــ.. عـــ.. عريفي..

– لا بأس عليك ولا تهتم للأمر كثيرًا، اجلس هنا في مكانك وسيحضر طبيب العيون بعد قليل.

ثم تركه وذهب، ولم تمضِ دقيقة واحدة حتى حضر ضابط كبير برتبة عقيد، وبدأ يوجه الأسئلة له.. بصيغة الأمر:

- أنت ما اسمك الثلاثي؟.

- أنا عريفي...

فرد عليه العقيد بامتعاض وعصبية:

- نعم أنت... ثم تابع بنفس الحدة والعصبية:

- وما حالتك المرضية؟.

- أنا عريفي...

فقاطعه العقيد بغضب شديد:

- أنا لست عريف... أنا طبيب العيون وضابط برتبة عقيد.

وقع كلام العقيد على مسمع سلمان كالصاعقة، ورفع رأسه قليلاً وأخذ يركز في نظراته على كتف الرجل ليتأكد من هويته وشخصيته، تقلبت ألوان وجهه بين احمرار واصفرار وأحس بالإحراج والارتباك أكثر من المرة السابقة مع النائب عريف، خاصةً بعد أن رأى بأم عينيه وبما تبقى له من نورهما نسرًا واثنتان

من النجوم مصنوعة من الذهب[1] تلمع ببريق آخاذ على كل كتف من كتفي العقيد.

فنهض من على كرسيه بقفزة سريعة وقال كالمعتذر الذي يبحث عن مبرر لخطأه:

– آسف... أنا آسف يا سيدي، فالعتب على النظر كما ترى.

فرد عليه العقيد بحدة مفتعلة، كمن لا يستطيع فعل شيء إزاء أمر هين يواجهه بالصدفة:

– اجلس.. اجلس في مكانك ولا تتحرك واخبرني بهدوء وبلا عجلة أو ارتباك عن حالتك الصحية وعما تعانيه.

استرسل سلمان في الشرح وواظب العقيد على الفحوصات حتى إذا ما انتهى من كلتا العينين؛ جلس إلى مكتبه ودعى سلمان للوقوف أمامه وأخذ يحدثه بصوت منخفض وهو منكب على الكتابة:

– عندي فكرة واضحة عن حالتك المرضية... نعم ما تعاني منه واضح جدًا.

---

[1]- اعتاد ضباط الجيش العراقي على صناعة رتبهم من الذهب عيار ٢١، والشرطة من الفضة الخالصة، وغالبًا ما تأتيهم من الجنود ولمراتب الأدنى تحببًا وتقربًا.

فاستبشر سلمان خيرًا، ودخل قلبه بوادر سرور وفرحة لم يألفها منذ دخوله الموقع، لكن العقيد بادره بكلمة قطعت عليه طريق الأفكار السعيدة وكأنها الهجوم المعاكس:

- ولكن...

- ولكن ماذا يا سيدي.

- ما هذا الشيء الذي أحمله بيدي؟.

رفع العقيد يده إلى الأعلى بمستوى وجهه حاملاً بين أصابعه قلم حبر جاف.

فرد عليه سلمان بهدوء المترقب للمفاجأة الجديدة بعد أن تأمل القلم وأمعن النظر فيه:

- هذا قلم حبر جاف سيدي.

فقال العقيد ببساطة وبوخزة سرور سريعة:

- هذا يعني أنك تمكنت من مشاهدة القلم بيدي بشكل واضح... أليس كذلك؟

- نعم سيدي...لكن بتركيز عالي وبصعوبة.

- ماذا تعتقد أنت، هل العدو الذي سيواجهك في ساحة المعركة بحجم القلم أم أكبر منه؟.

- لا سيدي... إنه أكبر منه بالتأكيد.

فرد العقيد كأنه يريد أن يصعد من شدة هجومه:

- آ آ آ آ... هذا ما أردت أن أعنيه تمامًا، ما دمت قد رأيت القلم الصغير الحجم بعينيك بالرغم مما أصابها، فهذا يعني أنك تستطيع أن ترى العدو الأكبر حجم القادم إليك أو نحوك بوضوح أكثر بدون صعوبة وتركيز عالي... أليس كذلك؟

تمتم سلمان... كأن الكلمات حبست داخل حنجرته ولا تريد أن تخرج:

- مـــ.. مـــ.. مـــ.. ماذا تقصد... ماذا تقصد سيدي؟

فرد العقيد بعجرفة:

- إنك تفهم ماذا أقصد بوضوح ولكنك تتغابى وتتظاهر بالغباء، على أية حال هذا الأمر لا يعنيني فليس عندي مزيد من الوقت لأشرح لك ثم أعيد الشرح مرة ثانية، لقد قررنا التحاقك بالخدمة العسكرية بصفة جندي غير مسلح، وعليك مراجعة دائرة تجنيدك خلال سبعة أيام اعتبارًا من تاريخ هذا اليوم تمهيدًا لتسويقك إلى وحدة عسكرية مناسبة.

ناوله ورقة صغيرة بعد أن وقع عليها هو شخصيًا واثنان من الضباط ودمغها بختم خاص، أخذ سلمان الورقة من يد العقيد وقد وقع حديثه معه موقع الغرابة والاستنكار، وهو يحدجه بعين

الغضب، لم يكن يهتم في تلك اللحظة بالإقناع، فلا مجال ولا مبرر لذلك، بقدر ما تهالك على إيجاد مخرج مناسب له، كمن يقع في مأزق حرج وتعوزه الحجة في الدفاع عنه.

غادر الغرفة إلى الفناء الخارجي حيث كان باستقباله حشد من الأفراد، استقبلوه بحفاوة كأنهم من رجال الصحافة ومراسلي وكالات الأنباء أو محطات التلفاز الفضائية، جعلوه بمنتصفهم والتفوا حوله في حلقات مغلقة وضيقوا عليه الطريق، وانهالوا عليه بوابل من الأسئلة السريعة:

- ماذا؟ كيف؟ لماذا؟ وهل..؟ و... و... و...

وهو يرد عليهم باختصار محاولاً الابتعاد عنهم ليمهد لنفسه مفر يلوذ به من ضجة ازداد زحامها بازدياد الوافدين تباعًا وباستمرار.

• • •

كان وقت الظهيرة قد أفل، وبدأ المساء يزحف بخطوات حاسمة ليحل محله، وليغشي الطرقات والأزقة بظلال الأشجار والأبنية، وليخفض درجة حرارة الشمس وشدة وهجها ويضفي على المدينة نسمات جو خريفي هادئة لطيفة منعشة...

طرق باب بيته، هبت زوجته «سلمى» لتفتح الباب؛ وإذا سلمان بمواجهتها يدخل وهو في حالة من الحزن، بدا في لباسها القاتم شخص غريب عنها، وكأنها لم تره وتسمعه من قبل، فواجهت غضبته وتقطيبه بابتسامة عريضة وضحكة واضحة كعادتها دائمًا:

- السلام عليكم.

أدى سلمان التحية على زوجته بهدوء محاولاً إخفاء ما في سريرته بدون فائدة، فردت السلام عليه بأفضل منه.

- وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته، ها.. خيرًا، ما أخبارك؟ تبدو متعبًا وغاضبًا.
- كيف عرفتِ أني متعب وغاضب؟
- سيماهم في وجوههم.
- وماذا تقرأين يا سلمى في سيماء وجهي.
- سماء وجهك ملبدة بالغيوم يا حبيبي ومنذرة بأمطار غزيرة قبل أوان موسمها، نعم يا حبيبي هكذا تبدو اليوم منذ عودتك من لجنة شرحبيل.

فصاح في وجهها لاهثًا وهو لا يتمالك نفسه من الغضب:

- لا تقولي أمطار غزيرة؛ بل فيضان... طوفان، لقد قررت اللجنة الطبية التحاقي في الجيش بصفة جندي احتياطي غير مسلح.

- أوه يا إلهي! كيف يسوقون شخصًا ضعيف البصر مثلك إلى الخدمة العسكرية، ونحن في حالة حرب مباشرة دخلت سنتها الثالثة؟!.

- ليس هذا وحده... بل ليس أمامي إلا أسبوع واحد فقط قبل أن ألتحق بالجيش.

- أسبوع واحد؟!

- نعم أسبوع واحد، أين أمي وأبي لأخبرهم؟

- هما الآن يجلسان في غرفتهم... بانتظارك.

- سأخبرهما حتى تعدين طعام الغداء، أنا جائع جدًا.

- الغداء جاهز، جميعنا لم نأكل بعد، ما زلنا بانتظارك.

• • •

بعد أسبوع واحد فقط استلم سلمان كتاب أمر التحاقه بوحدته العسكرية الجديدة من دائرة تجنيده، وكم كانت صدمته كبيرة

وأسرته كذلك حين علموا بنقله إلى وحدة عسكرية متواجدة ضمن الوحدات القتالية القريبة من خطوط القتال، في جبهة الحرب الأمامية، بعد دورة تدريبية قصيرة لم تزد عن شهر واحد، بدون سلاح للجنود والمستجدين، قضاها في مركز للتدريب وسط العراق...

وهكذا التحق سلمان داود في خدمة الاحتياط في الجيش العراقي، أثناء الحرب العراقية الإيرانية بعد سنتين ونصف من قيامها، بصفة جندي مكلف احتياط غير مسلح... وصفة غير المسلح تطلق على الجنود ذوي العاهات الدائمة والتي تمنعهم من الالتحاق بالصفوف الأمامية لجبهات القتال، والاشتراك بشكل مباشر بالعمليات الحربية القتالية، لذلك هم يؤدون واجبات خدمية ثانوية؛ مثل الحراسة في الخطوط الخلفية، وأعمال نقل العتاد، التنظيف، العمل في المطابخ، مستشفيات الميدان وخدمات الضباط وكل الواجبات الثانوية غير الأساسية الأخرى.

وبظروف كهذه وفي واحدة من مقرات الأولوية في الخطوط الأمامية للمعركة، حيث التحق بوحدته الجديدة كان يرى يوميًا العجب، ومن الحقائق ما هو أغرب من الخيال، وتمر به من

الحوادث اليومية ما لم يخطر له على بال، وما لم يعتد على معايشتها، وما يشيب لها رأس الطفل الرضيع...

حيث الجنود القتلى الممزقة جثثهم إربًا والخالية من بعض أجزاءها في الكثير من الأحيان، وهو يعيش بين أنين الجرحى، المتراوح بين الخافت اليائس القانط من الحياة وفقد الأمل فيها كما فقد كل قواه ولم يعد يملك غير أنينه الخافت هذا، إلى صرخات الاستغاثة التي يطلقها أولئك الذين ما زالوا متشبثين بالحياة ولهم آمال عريضة ومطامح فيها، أولئك تكسرت عظامهم وتألمهم جراحهم الملوثة، وما زالت فيهم بقية يقوّون بها على الصراخ ألًما طلبًا لنجدة ومعونة من منقذٍ ينقذهم، ومن جراح هذا وذاك وغيرهم النازفة أنهارًا من الدم الأحمر القاني ليسقي أديم الأرض الرملية ويصبغها بلونه المنبوذ وشكله المذموم، وليزيد من عطشها لمزيد من الدماء، وليس إلى الماء الذي لم تعد تقتنع به ولم يعد يرويها.

كم مرة تخلى عن ثيابه ليمزقها جاعلاً منها خرقًا يلف بها الجراح النازفة؛ محاولاً إيقاف نزفها حتى يأذن الله سبحانه لأصحابها المصابين بفرج قريب، وكم مرة اضطرته الظروف للتخلي عن طعامه وماءه ليطعم به جندي جائع جريح أو صحيح قادم من ساحات القتال، أو ليروي آخر ويطفئ نار عطشه.

وكذلك كان يشاهد الجنود الجدد الذين يلتحقون بجبهات القتال الأمامية لأول مرة ويتعرف على بعضهم، عوضًا عن أولئك الذين يخرجون من سعيرها لمقتلهم أو لإصابتهم في جروح أو لوقوعهم بالأسر، أو حتى الهروب والفرار من الخدمة العسكرية لعدم التحاقهم بوحداتهم مرة أخرى، بعد انتهاء زمنية الإجازة الاعتيادية ومدتها ستة أيام فقط في الشهر الواحد للوحدات العسكرية التي لا تتعرض إلى ضغط دائم أو هجوم مباشر، أما بخلاف ذلك فاقرأ على الإجازة الزمنية السلام.

وكم مَرَ به جنود إيرانيين أسرى بالمئات؛ بل الآلاف... ساقتهم أقدارهم إلى الأسر إلى الخطوط الخلفية، قبل أن يتم نقلهم إلى العمق داخل الأراضي العراقية، وغير هذه وتلك من الأحداث اليومية المخيفة المرعبة التي تمر يعيشها يوميًا.

• • •

عاد سلمان إلى وحدته العسكرية في مقر اللواء بعد انقضاء مدة إجازته الدورية، ستة أيام، وفي نوبة حراسته الليلية ها هو صديقه المقرب وزميله الجندي رمزي يستقبله بالأحضان، مهنئًا بسلامة

العودة، راجيًا ومتمنيًا له إجازة سعيدة كان قد قضاها بين أسرته وأصدقاءه في المدينة.

- الحمد لله على السلامة... إجازة سعيدة.
- الحمد لله، شكرًا لك يا أخ رمزي.
- وكيف هم أهلك؟ هل أبلغتهم تحياتي وسلامي؟
- هم بخير جميعًا وأبلغتهم تحياتك، وأنا أحمل كل تحياتهم وأشواقهم ودعواتهم لك بالسلامة والتوفيق.
- أهلي وأسرتي هل زرتهم؟.

فرد عليه مازحًا في واحدة من حالات المزاح الدائم بينهما:

- لا.. لا.. أنا آسف يا رمزي لم أتمكن من زيارتهم.
- ولماذا؟
- لا وقت كافٍ، لا مجال عندي يا رمزي، تعلم أنها ستة أيام يضيع منها يومان في طريق الذهاب والإياب تبقى فقط أربعة أيام لا تكفي الواحد منا تقبيلاً لوالديه ورقادًا هانئًا بأحضان زوجته حتى الكفاية والإشباع، ونزهة مع أطفاله حتى القناعة، وزيارات لأقاربه ومجاملات لأصدقائه... و... و... و...
- حيلك... حيلك يا سلمان، حيلك... قمت بكل هذه الأعمال وأديت كل هذه الواجبات ولم يتبقَ غير زيارة أمي؟.

- نعم يا رمزي أنا آسف أرجو المعذرة.

- كان الله بعونك، لقد تعبت كثيرًا أيها الكاذب! في داخلي هاجس يقول إنك كاذب، أنا متأكد أنك زرت أهلي، وهذا الكيس الذي تحمل بين يديك يشي بك ويفضح كذبك ما دامت تثقله الدنانير وتفوح منه رائحة الكليجة.

ضحك سلمان بقوة ضحكة ارتفع صوتها لينافس صوت الموت والدمار المصطنع وهو يقول:

- نعم يا رمزي زرتهم بالتأكيد، والداك وأخواتك يخصونك بالسلام ودعواتهم لك بالسلامة والعودة بأمان، وقد حملتني والدتك كيسًا كبيرًا وثقيلاً، علمت ما بداخله من خلال رائحته الشهية والزكية الفواحة التي وشت بي وفضحتني أمامك، إنها رائحة الكليجة العراقية اللذيذة الطيبة والمحشية بالجوز واللوز والتمر العراقي الفاخر، نعمة قبل أن تزول، فكل يوم يموت ويحترق عدد من النخيل أكثر من عدد الرجال القتلى!.

رد عليه رمزي وهو يفتح الكيس وقد تورد خده فرحًا وسرورًا، وبانت ابتسامة عريضة تشطر وجهه المستدير ذو البشرة البيضاء الموشحة بحمرة خفيفة.

- شكرًا.. شكرًا يا سلمان، آه... كما توقعت، نعم هي الكليجة وهذه واحدة أو اثنتان من قناني عصير البرتقال المحلى بالسكر، وهذه لفافة صغيرة... ماذا بداخلها؟ لنفتح ونرى، آآآآه... إنه مبلغ من المال، خمسة عشر دينار، مبلغ كبير، شكرًا لك يا سلمان مرة أخرى، لو تعرف كم أنا بحاجة لكل محتويات هذا الكيس لعرفت مدى فرحتي وعمق سروري، لقد وصل بالوقت المناسب، تفضل... تفضل خذ يا سلمان، هذه القطع من الكليجة هدية مني لك، حلال عليك يا رجل تستاهل حتى أعد لك قدحين من عصير البرتقال.

فرد عليه مبادلاً ومشاركًا له فرحته وابتسامته بفرحة أكبر وابتسامة أعرض.

- شكرًا لك يا رمزي، لقد حملتني أمي كيسًا كهذا وربما أكبر منه، حتى أن الكليجة التي تصنعها أمي أطيب وأحلى في طعمها وانتظامًا في شكلها من هذه التي تصنعها أمك.

هتف به رمزي بحدة وهو يحمل قدحي العصير رادًا عليه مزاحه بأسلوبه الخاص:

- لا... لا يا سلمان أنت واهم بل ما تصنعها أمي هي الأفضل والأحسن دائمًا، ذق وجرب حتى تصدق قبل أن تعترف.

- لا بل أمي...

- لا بل أمي...

وضحكا معًا... خرجت ضحكتهما من الأعماق لتطفو على السطح وهما يأكلان الكليجة ويشربان عصير البرتقال.

مازال المزاح مستمرًا وهذه بداية جديدة:

- تأكل السم يا رمزي.

- تأكل المرض يا سلمان.

وعادا إلى الضحك مرة أخرى، وهكذا تنقضي الأيام يومًا بعد آخر حتى تتراكم وتتكدس شهور وسنين وهما بين الجد والمزاح، والضحك والهم، والرغبة في الحياة الحرة الكريمة والخوف، يا لها من سبيكة خبيثة تلك التي تنصهر في بوتقتها جامعة الأمل والرجاء مع اليأس والقنوط، إنها حتمًا سبيكة غير متجانسة لا يمكن طرقها أو سحبها، وسرعان ما تتفتت معلنة عن نفسها بالفشل.

• • •

في ليلة مظلمة هجرها قمرها فاشتدَّ سوادها، ليس فيها من أصوات سوى سماع طنين جوقات البعوض المتزايدة رويدًا رويدًا تجول وتصول مستولية على هدوء الليل وسكونه من غروب الشمس حتى شروقها، إنها لا تخشى الحرب وساحات القتال لكن ليس تمامًا، هناك من ينافسها عن بعد، إنها أصوات الانفجارات لقذائف المدفعية ووميضها في كل الليالي، وفي هذه الليلة بالذات ارتفعت الأصوات دفعة واحدة وخفتت دفعة واحدة، وكأن معركة سريعة خاطفة وقعت الآن قبل حين وانتهت توًا، والتي لا يبتعد موقعها كثيرًا عن مقر اللواء.

اجتمع الصديقان مرة أخرى في نوبة حراسة جديدة:

- اسمع يا رمزي «قالها بحزن شديد كأن في حنجرته غصة»، أكثر من سنتين مرت على اندلاع الحرب بيننا وبين إيران.

- نعم نحن الآن في الشهر السابع من سنة الحرب الثالثة، نحن الآن في أخر أيام آذار عام ١٩٨٣، ماذا تريد أن تقول بالضبط اشرح لي بالتفصيل الممل، تحدث كثيرًا وبلا انقطاع حتى تنتهي فترة نوبة حراستنا الطويلة المملة، عندي رغبة أن

أراك ثرثارًا وأسمعك مهذارًا هذه الليلة... هيا تكلم وأنا سأصغي.

- أنا أعد سنوات الحرب وأنت تعد شهورها، وهناك غيرنا من يعد الأيام والساعات، والجميع يتمنى توقفها، والله وحده يعلم متى ستتوقف، لعلها ستستمر وتطول وتعرض كحرب البسوس[1].

- أعوذ بالله من أفكارك، أفكارك السوداء كوجهك، حرب البسوس! حرب البسوس دفعة واحدة؟! اتقِ الله يا أخي في عباد الله وتكلم على قدر حالك.

- ليت الأمر بيدي ويدك ونوقفها الآن اليوم قبل الغد، اليوم نحن بشر مسيرون لا مخيرون، وما زال هناك من يرسم لنا طريقنا ويأمرنا قسرًا بالسير فيه، أن نحث الخطى ونمشي مغمضي العيون، نفذ ثم ناقش، لا بل نفذ ولا تناقش ولا يترك لنا الخيار فيه أبدًا رغمًا عنا، شئنا أمّ أبينا سيان عندهم، لقد أثقل عليّ الليل في هذا العالم المليء بالويل، إنه عالم ظُلم وظلام مختوم عليه بالأختام، أختام نجسة وعقد نحسة لا حصر لها ولا

[1]- حرب البسوس: من حروب العرب في الجاهلية, استمرت ٤٠ عام.

عدد، عالم عذبه الأشرار وروعه المفسدون وضيق عليه الفاسقون، لقد مللت الموت ومنظر الدم، تاقت إلى السلام نفسي، تهفو إلى حياة حقيقية، هذا هو سبيلي وهذه هي نيتي، منطقي ودليلي... ربنا نحن نسبح ملئ حنايانا فاغفر لنا ذنوبنا وخطايانا.. إنك أنت المعين الناصر الغفور.

فمال رمزي بسرعة واضعًا يده على فم سلمان كأنه يريد منعه عن الكلام هاتفًا به ومؤنبًا له:

- اسكت... اسكت، يا صديقي اسكت وأغلق فمك لا يسمعك أحدهم وتذهب وشايته بنا إلى جهنم وبئس المصير، في الدنيا قبل الآخرة.

- قبل دقائق قليلة تقول لي تكلم.. تحدث بلا انقطاع... أريدك الليلة ثرثارًا، والآن تضع يدك على فمي وتمنعني عن الكلام! قل لي ماذا تريد بالضبط؟

- لست أدري يا سلمان فكل الأحاديث ممنوعة علينا، حتى النكتة صارت ممنوعة.

- ألقي النكت واحفظ كما تشاء يا أخي، لكن تجنب النكات السياسية والخلاعية والتي لا تجيد غيرها.

– ماذا؟ لا... لا مستحيل، كل نكاتنا إما سياسية أو خلاعية، ولم يبقَ لنا من النكات الحقيقية إلا النزر اليسير، لا تسد ثغرة ولا تروي ظمأ، كلها معاد مرات ومرات حتى الملل.

ضحك الاثنان قبل أن يسترسل رمزي بكلامه:

– قبل ثلاثة أيام وأنت في إجازة؛ وقعت عند الفجر قوة مشاة تقدر بسرية في حقل ألغام، قبل تعرضها لقصف مدفعي مركز وعنيف، لا أعتقد أن النجاة والحياة كتبت بعدها لأحدهم، في الليل تسللنا بحذر تحت جنح الظلام لانتشال الجثث واستعادتها، هنا في هذا الموقع قمنا بتجميع أشلاء جثث الشهداء بشكل عشوائي، بحيث نضع بعض أجزاء جثة كالأطراف والرأس لجذع جثة أخرى، هكذا عشوائيًا وكيفما اتفق، بحيث تصبح عندنا جثة كاملة، ثم نلفها بكيس من النايلون الأسود قبل أن نضعها في الصناديق الخشبية، نمنحها رقمًا ونضع لها اسمًا لأحدهم، وكم خفت وفزعت صباحًا حين فتحت أحد الأكياس فوجدت بداخلها رأسين لجثة واحدة!.

فرد عليه صاحبه متسائلاً ومشاركًا إياه حزنه وهمه:

- ولماذا هكذا؟ لماذا لا ترتبون الجثث وتضعونها بالشكل الصحيح داخل الأكياس؟

- وما أدرانا... ما أدرانا لمن تعود هذه الذراع الزائدة، ولمن هذه الساق المهشمة، وهذا الرأس المشوه لأي جذع محروق، ثم إن الظلام دامس ولا حتى نور لعود ثقاب نستمد منه لمحة ضوء خافت، ونحن على عجلة من أمرنا لأن الآمر طلب منا إنهاء العمل خلال ثلاث ساعات فقط، ونحن خمسة جنود أمام عشرات الجثث المتعفنة وتفوح منها رائحة الدم النتنة التي تزكم الأنوف... كنا نشعر بالاختناق ولم نتمكن من التنفس أبدًا.

- وأنا كذلك كنت أستخرج قبل عشرة أيام وبمساعدة سبعة جنود آخرين الجثث المحترقة جزئيًا أو كليًا إلى حد التفحم من داخل الدبابات العراقية والإيرانية المحترقة، المسحوبة إلى خطوطنا الخلفية على حد سواء.

- تعرف لو أن عشرة أوبئة فتاكة من تلك التي كانت تجتاح المدن القديمة وتقضي على معظم الناس فيها، مثل الطاعون والكوليرا والتيفويد والجدري وغيرها اجتاحت العراق

وإيران هكذا دفعة واحدة، وبدون سابق إنذار؛ لما سقط من الموتى بهذه الأعداد التي تسقط بالحرب.

فرد عليه صاحبه مؤيدًا كلامه:

- نعم صحيح يا رمزي «ثم أضاف مازحًا كعادته» لأول مرة تقول كلامًا معقولاً تثبت به أنك ذكي قليلاً.

- أما أنت فلم تقل كلامًا كهذا أبدًا وما زلت غبيًا يا سلمان.

وسرعان ما انقلب حزنهما إلى ضحكة فاترة قلقة خرجت من الفم عنوة وليس من القلب، كأنها ضحكة مسروقة من ثنايا الزمن وتلافيفه، وهكذا هو العراقي يبكي من كل قلبه ووجدانه إذا بكى، ويضحك من قشور جلده إذا ضحك، ضحكة سرعان ما يلوذ بها خجلاً وحياءً.. ذهبا إلى النوم بعد انتهاء نوبة الحراسة وتم استبدالهما بجنديين آخرين.

• • •

في فجر يوم ربيعي من أوائل أيام إبريل/ نيسان الصاخبة، نيسان شهر العواصف والأمطار، حيث فرقعة المدافع وصواريخ المعركة وأصوات انفجاراتها على الأرض، تعانق فرقعة السماء في أصوات

رعدها ووميض برقها الخاطف، عندما تقذف مزنة عابرة تعصرها الرياح بما تحمل من ماء مطرها هنا، وتقذف مزنة أخرى ماءها الأسود الملوث بدخان الدبابات والعجلات المحترقة هناك، حتى لم يعد بالإمكان التمييز بين وميض المعركة وأصواتها ووميض نيسان الثائر بتلك السهولة اللازمة على مسامع سكان القرى والمدن الغريبة من ساحة القتال!.

عند الفجر في انتظار إشراقة شمس يوم جديد؛ توقفت وسط المعسكر الصغير المقام كمقر قيادة ميدانية خلفية لأحد الألوية المقاتلة سيارة شحن عسكرية كبيرة نوع «إيفا»، محروسة بسيارتي جيب عسكريتين، واحدة أمامها والأخرى خلفها، نزل مترجلاً من الأمامية ضابط برتبة نقيب، وترجل معه من السيارات الثلاث ثمانية أفراد، هم سواق السيارات ومرافقي الضابط، تشكلت منهم وبسرعة حلقة بشرية مغلقة حول السيارة الكبيرة، في الوقت الذي همَّ فيه النقيب بالدخول على آمر اللواء، وما هي إلا بضع دقائق حتى خرج النقيب برفقة العقيد الركن آمر اللواء ومعهم حفنة من الضباط والمراتب، وقد ارتفع صياحهم وضجيجهم وعلامات الفرح بادية على وجوههم.

صاح العقيد بأعلى صوته الجهوري قاطعًا ضجيج هرجهم وفوضى أهازيجهم:

– هيا... هيا... افتحوا باب الشاحنة الخلفي... هيا بسرعة.

ثم تابع حديثه بالأمر وبصوت مرتفع بعض الشيء:

– عريف محسن... أسرع يا عريف محسن.

– نعم سيدي.

وما أن فتح الباب حتى أمر من بداخلها بالنزول عنها، وإذا هم اثني عشر أسير إيراني وقد عصبت عيونهم وقيدت أياديهم إلى الخلف نزلوا بالتعاقب واحد خلف الآخر، يتقدمهم ضابط شاب في أوائل الثلاثينات من عمره، برتبة ملازم أول، والأحد عشر الآخرون برتب وأعمار مختلفة، بينهم من تجاوز الأربعينات من العمر، وكان سلمان يرقب المشهد عن قرب برفقة صديقه رمزي، تساءل قائلاً كإنه يهمس بأذن صاحبه:

– يبدو أنهم أسرى معركة الليلة الماضية.

– نعم... هم كذلك، لكنهم قليلون هذه المرة، في المرات السابقة اعتدنا على العشرات، بل وحتى المئات من الأسرى.

تحدث العقيد إلى بعض الضباط والمراتب يشاورهم في أمر طاريء بدا حله سهلاً وبسيطًا:

- ليس من العادة مبيت الأسرى عندنا هنا في مقر اللواء، لكن هؤلاء سيبقون عندنا لأول مرة بسبب سوء الأحوال الجوية، ونشاط الطيران المُعادي، وسيمكثون هنا حتى ضحى الغد، حسب علمي لا توجد قاعة مناسبة لهم فماذا تقترحون؟

رد عليه أحدهم باهتمام:

- ما دمنا نتحدث عن مدة زمنية قصيرة أمدها يوم واحد؛ فالأمر بسيط جدًا سيدي.
- كيف...؟
- ندخلهم هذه الخيمة المخصصة لاستراحة الحرس، والتي لا نستعملها إلا نادرًا، على أن تشدد الحراسة عليهم.

يبدو أن الفكرة راقت للسيد العقيد، فعاد يسأل من حوله:

- فكرة جيدة... ما رأيكم؟

أجاب الجميع بالموافقة بشكل أو بآخر، كل حسب أسلوبه، فعاد يصدر أوامره من جديد:

- حسنًا، ادخلوهم إلى هذه الخيمة حتى نرحلهم غدًا إلى مجمع التسفيرات في الفيلق.

فعلاً، نفذت الأوامر بسرعة وأدخل الأسرى الاثني عشر إلى داخل الخيمة شبه المظلمة، ثم بعد برهة غادرت سيارتا الجيب والشاحنة بمن جاء بها من ضابط ومراتب، وعادت من حيث جاءت، بقي العقيد ومرافقوه ليعيد إصدار أوامر جديدة إلى العريف محسن.

- عريف محسن.
- نعم سيدي.
- اسمع يا محسن... شدد الحراسة على الأسرى ولا يدخل عليهم أحد أو يتحدث إليهم، هذا ممنوع... ممنوع كما جرت العادة، مفهوم؟
- مفهوم سيدي... مفهوم.

رجع العقيد ومن معه كل إلى مكانه مرة أخرى، بينما بقي العريف يتحدث إلى تسع جنود من بينهم سلمان ورمزي وسط هدوء وصمت مطبق تام.

- اسمعوا أنتم وانتبهوا جيدًا، ستتناوبون على حراسة هذه الخيمة على ثلاث وجبات، ثلاثة جنود لكل وجبة ولمدة ثلاث ساعات، يقف أحدكم على باب الخيمة الأمامي، والثاني على الجهة الخلفية، بينما يدور الثالث بينهما حول الخيمة يتفقد جوانبها ويتفقد رفيقيه وينبههم حتى لا ينام أحدهم أو يغفل، بينما يذهب الستة الباقون للنوم والراحة حتى يحين موعد استبدال ثلاثة منكم كل ثلاث ساعات... مفهوم؟ هل أنتم بحاجة إلى المزيد من التعليمات؟ لا تنسوا يمنع الاقتراب من الأسرى منعًا تامًا وكذلك التحدث إليهم.

- مفهوم عريفي.

قالها أحدهم وهو في حالة الاستعداد العسكري في وقفته.

- تقف أنت يا سلمان عند الباب الأمامي، وأنت يا علي على الجانب الخلفي، بينما تدور أنت يا رمزي بينهم في أول نوبة حراسة.

غادر عريف محسن المكان مندسًا داخل إحدى الغرف بينما انتشر الجنود الثلاثة حول الخيمة في نوبة حراستهم الأولى، كل في مكانه والدور المرسوم له، وقف سلمان عند باب الخيمة كالأسد

يحرس عرينه وهو ينوء تحت ثقل بندقية الكلاشنكوف بمخزن ذخيرة محشو بثلاثين طلقة وجعبة ومخازن أخرى وخوذة، لأول مرة يحمل سلمان سلاحًا كهذا ويتسلم مهام شبه قتالية فكانت علامات الخوف والرهبة والتردد والتعجب... و... و... و... بادية عليه، وعلى عجينة وجهه غير المتجانسة، وبدأ يتناول الحديث مع صديقه رمزي، كل ما مر به وهو يدور حول الخيمة في الدورة الأولى:

- هل تعلم يا رمزي هذه أول مرة أحمل رشاش كلاشنكوف في حياتي.

- مبروك عليك، دعائي إن شاء الله تحمل مدفعًا، أو غدًا تتسلم دبابة تحملها على رأسك كأنك تحمل سلة عنب.

- إنها ثقيلة، ما عساي أن أفعل بها وأنا لا أجيد استعمالها؟ حتى ولم أتدرب عليها أصلاً!.

رمزي ساكت لا يتكلم.

في الدورة الثانية:

- ما بك صامت يا رمزي؟ أنا أتحدث إليك وليس مع نفسي، هل أنت جائع أم خائف أم تشعر بالبرد، أو أصبت بلوثة

عقلية صكت لسانك؟ لو كنت جائع يا رمزي فسأجلب لك باقة جت أو برسيم لتأكلها، هناك بعض التبن في الحقول القريبة، اذهب إلى هناك وتناول فطورك.

- لست خائفًا ولا جائعًا ولكني أشعر بالبرد قليلاً، على أية حال لقد بدأت الشمس تشرق وبان وهج قرصها الذهبي رغم كثافة الغيوم، أما البندقية فإنك لا تحتاج إلى استعمالها هنا أبدًا، في هذا المكان لا يدور قتال ويكفي أنك تحملها وأنت صامت.

وفجأة وفي الدورة الثالثة تذكر رمزي أمرًا كأنه كان قد نسيه:

- سلمان.. أعرف أنك مريض بكلتا عيتيك ونظرك ضعيف وخاصة في الليل، أليس كذلك؟
- نعم، وما الجديد في الأمر؟ هل وجدت علاجًا شافيًا؟
- ليس من جديد، ولكني أردت أن أقول ما دام الأمر كذلك فكيف لهم إذًا تكليفك بواجبات الحراسة الليلية بالذات، وبالذات حراسة أسرى إيرانيين.
- وماذا بيدي؟ هل بإمكاني أن أغير شيئًا؟ أعترض مثلاً، أحتج، أمتنع عن تنفيذ الأوامر؟

- لا ليس هذا قصدي، لكن جميع الضباط وضباط الصف والجنود هنا يعرفون بعاهتك ويعلمون جيدًا مدى خطورتها، حتى أنه لمشهد مألوف اعتادوا عليه رؤيتنا معًا وأنا أقودك من يدك خاصة في الليل، وأقف بجانبك تمامًا ولا أبتعد عنك كثيرًا أثناء الواجب والممارسات اليومية.

فرد عليه سلمان بحسرة مسموعة:

- نعم يا رمزي، يا صديقي المخلص الأمين كل ما قلته صحيح تمامًا ولكن ما العمل، قلت لك مرة قبل أيام قليلة نحن أناس مسيرون لا مخيرون، وهناك من يتحكم بنا رغمًا عنا، رفضت هذا الكلام وأمرتني بالسكوت.

• • •

الآن، في هذا الوقت بدأت الشمس بالشروق، بدأت تطل برأسها متمهلة حتى تكاملت، كأنها في صراع ضد الغيوم والأنواء الجوية المتقلبة التي تحجبها أغلب الوقت، لتطل في أحيان قليلة من بعيد عبر الأفق الممتد قرص أصفر تام الاستدارة، محاولة بلا فائدة استرداد حيويتها ونشاطها وزيادة توهجها، لكنها نجحت

وأعلنت عن بدء نهار جديد.. فجأة سمع الصديقان صوت استغاثة، مصدره داخل خيمة الأسرى.

– ماء... ماء... نريد ماء... نحن عطشى.

ثم تكرر النداء مرة أخرى بعد أقل من دقيقة:

– ماء... اسقونا الماء رحمكم الله، ويرحم موتاكم.

سمع الحراس الثلاثة هذا النداء، وباللهجة العامية العراقية مما أثار فيهم الدهشة والاستغراب.

فقال رمزي بتأثر:

– اسمع يا سلمان... أحدهم يطلب ماء متحدثًا باللهجة العراقية العامية!

– أنا كذلك سمعت... ماذا سنفعل؟

– لست أدري.

فقال سلمان باهتمام وحذر شديدين:

– سأدخل الخيمة وأستطلع الأمر.

فهب رمزي من سكونه وقال بلهجة غاضبة:

– لا... لا... لا تدخل إلى الخيمة، ممنوع.. ممنوع.. ممنوع..

حفزته مسؤولياته الإنسانية لكنه كان مُسلّمًا بصعوبة مهمته، فندت منه حركة لا تخلو من حدة القلق وهو يقول:

- سأدخل بحذر وهدوء...لا...لا، بل سأدخل رأسي فقط من خلال هذا الشق في باب الخيمة، واحتفظ بجسمي خارجها ولن أقترب من الأسرى كثيرًا، أستطلع الأمر فقط.

بعد حوار ساخن وافق رمزي لكن بشرط:

- إذن أعطني بندقيتك حتى لا يخطفها أحدهم ويستعملها ضدنا، لقد شاهدت لقطة كهذه في فيلم سينمائي أمريكي، فيلم حربي عن الحرب العالمية الثانية، لقد اختطف جندي أمريكي فك وثاق أسره وفاجأ الجندي الألماني وقتله... وبعد ذا...

فقاطعه سلمان:

- هل ستروي لي الفيلم بأكمله؟ ألم أقل لك أنت خائف مرعوب، هل نسيت أن الأسرى معصوبي الأعين ومقيدي اليدين؟

- لم أنسَ... لم أنسَ، ربما حل أحدهم وثاقه وحل وثاق باقي زملائه كما حصل في الفيلم الـــــــ...

قاطعه مرة أخرى:

– عاد إلى الفيلم مرة أخرى، ألم أقل يكاد الرعب أن يقتلك «واضعًا يده على قلب رمزي»، لقد تجاوزت دقات قلبك المائة دقة، وبعد قليل ستزيد على دقات قلب الفأر، أيها الفأر.

– قلت لك لست خائفًا أيها الصرصور ذو اللسان الطويل، ولكن احذر... الحذر واجب، الحذر يقيك الضرر تذكر هذا الكلام دائمًا.

أدخل سلمان رأسه داخل الخيمة... مرره من فتحة في بابها، وأبقى جسمه خارجًا، موجهًا حديثه إلى الأسرى:

– ماذا تريدون؟

فرد عليه أحدهم بقلب مهزوز مكسور وباللهجة العراقية:

– نريد ماء نشعر بالعطش.

– انتظروا سأعود بعد قليل.

عاد سلمان بعد خمس دقائق وهو يحمل قنينة بلاستيكية صغيرة سعة لتر مملوءة بالماء، وبيده الأخرى قدح بلاستيكي مملوء بالماء أيضًا وكأنه يفكر أن قنينة الماء وحدها لا تكفي، وما هذا القدح إلا تتمة لها.

حاول صاحبه منعه من دخول الخيمة، لم يدخر جهدًا، بلا فائدة سلكت محاولاته طريق الفشل، دخل الخيمة وبدأ يسقي الأسرى المقيدين واحدًا بعد الآخر حتى الأسير الرابع، وإذا بباب الخيمة يفتح بعنف وقوة وكأن نمر جريح يدخلها، إنه عريف محسن، اقتحم الخيمة ودخلها دخول الفاتحين وثار كالبركان:

- حقير... حقير... ماذا تفعل هنا أيها النذل الحقير؟

ارتعد سلمان وقد نفذت خشونة الصوت إلى قلبه، فانعقد لسانه والتصق الكلام بسقف فمه، لا يريد الخروج.

- إنـــــــ...إنـــــــ...إنهم عطشى ومساكين.

- وما شأنك أنت بهم، مِن باقي أهلك وعشيرتك؟!، ألا تعلم أنهم أعداءك، ألا تعلم أن الاقتراب من الأسرى خطير... خطير جدًا، والتحدث إليهم ممنوع ممنوع، وقد صدرت الأوامر الصريحة بذلك... أنت واحد وهم اثني عشر ماذا لو انقلب الأمر واختطفك الأسرى وأخذوك رهينة عندهم وأصبحت جزءً من مساوماتهم، اعلم علم اليقين أن لا أحد سيبالي بك ويعيرك أدنى اهتمام، لأن فكر القيادة العسكرية في العراق يقول أسير إيراني واحد يساوي عشرة مثلك.

فقال سلمان الذي هدته شدة المفاجأة:

- ماذا أقول؟ غير أني أعرف ذلك... ولكن...
- ولكن... ماذا؟

«قالها وهو يتمسك بتلابيبه بيده اليسرى وملوحًا بقبضة يده اليمنى بوجهه» وهو يسحبه إلى خارج الخيمة:

- اسمع سأسامحك هذه المرة حتى لا تقول إن عريف محسن رجل سيء، ولن أخبر عنك، لكن قسمًا عظمًا لو فعلتها ثانيةً فسأسلمك بيدي إلى آمر اللواء، هل فهمت أيها الغبي؟

ألا سحقًا لهذه المفاجأة، ألا سحقًا لهذه المصادفة، وأية مصادفة عمياء هذه التي ألقت بالعريف في المواجهة؟ التوت شفتاه تقززًا وامتعاضًا وأحس بمرارة الذل، ثقل الهزيمة، لوعة هوان الذات وضائقة اليأس، فانقلب على نفسه، منكسرًا، ضائعًا، منطويًا يهذي مع نفسه:

- اللعنة...اللعنة عليكم، ما أظلم الإنسان لأخيه الإنسان متى تسلط فوق رأسه بسيف القوة والجبروت والطغيان، عندها تزهق الأرواح وتسيل الدماء وتعم الفوضى ويسود الاضطراب وينتشر الخراب في عالم الظلام البهيم المملوء كله بالشر، بالغائلة، بالنار المستعرة الآكلة، عالم الفتنة المضطرب، عالم الغش والكذب والزيف والبهتان المزروع بالشوك

والعلق، يا إلهي... متى ينتهي هذا العذاب المهين؟ ونخرج بعونك وإرادتك من ديجور الظلام إلى هيلمان النور، في هذه الدنيا المختومة بالموت، أطلقتها صرخة من أجل يوم جديد في عمر جديد، وعهد جديد في عالم جديد.

• • •

بعد برهة زمنية قصيرة امتطى العريف سيارة جيب عسكرية وغادر الموقع... فأراد سلمان انتهاز الفرصة وأخذ يحدث نفسه:

- لقد أقسمت أن أسقي الجنود الأسرى الماء وما دام محسن قد غادر فيجب أن أعمل وبسرعة.

قال ذلك مع نفسه بسرور، تجلى بتألق عينيه النرجسيتين وهو يبتسم ابتسامة خفيفة نمَّت عن شعوره بالسعادة والخيلاء، كمن يظفر بنصر مبين عقب هزيمة نكراء ساحقة، التفت إلى صديقه وحدثه معاتبًا:

- لماذا لم تخبرني وتنبهني لقدوم عريف محسن؟

- لقد تفاجأت بوصوله ولم يكن هناك وقت كافي لتحذيرك وتنبيهك،كنت حينها مهتمًا بحمايتك، متأهبًا لأي طاريء،

مستعدًا لأي حدث مفاجيء يقع داخل الخيمة لكن المفاجأة جاءت من خارجها وهذا ما لم أحسب حسابه.

– اسمع... اسمع يا رمزي سأفعلها مرة أخرى... فانتبه جيدًا.

– لا تفعل ذلك... قلتها لك مرة وأقولها لك الآن، ينبغي ألا تعود إلى هذا العمل مرة أخرى، فتورطنا في مشاكل وتجلب لنا المحن، بما لا قدرة لنا على مواجهتها، أخطأت مرة فلا تخطئ ثانيةً، وتذكر المؤمن لا يلدغ من جحر مرتين.

– لا تهتم، إذا حدث أمر ما فسأتحمل المسؤولية أنا وحدي.

قال ذلك بجرأة الضعيف الواهن، وهو يعلم علم اليقين أن العاقبة لن تكون خيرًا عليه لو افتضح أمره هذه المرة، وبلا مبالاة غادر مكانه مندفعًا بسرعة الفهد الصياد متجهًا نحو قنينة الماء البلاستيكية والقدح، ليعيد ملأها مرة أخرى بالماء، هرول خلفه صيحات صاحبه رمزي... ناهية مانعة.

– لا... لا... لا تفعل ذلك وكفاك تهورًا.

لكن سلمان رفض أن يتوقف واستمر في عمله وثبّت موقفه مدعمًا بعاطفته الإنسانية الصافية، ومع ذلك حاول رمزي إيقافه ومنعه من دخول الخيمة مزاحمًا له ومضيّقًا عليه الطريق حتى

سقطت واحدة من البندقيتين على الأرض من على كتفه وسقط قدح الماء من يد سلمان وانسكب على الأرض، لكن بدون فائدة، دخل سلمان إلى الخيمة ثانيةً وبدأ يسقي الجنود الأسرى الماء بيده، واحدًا تلو الآخر بالإضافة إلى الأربعة في المحاولة الأولى ها هو يسقي الماء للأسير الخامس، والسادس، والسابع، و... وفجأة..

يا للهول... يا للكارثة... حدث فجأة ما لم يكن متوقعًا وما لم يدخل في حساباته الزمنية، حين فتح عريف محسن باب الخيمة، لقد بوغت بلقاءه مباغتة عنيفة وللمرة الثانية وقف في مكانه كالصنم قبالة سلمان يتأمله بعين حمراء صامتًا، لكن صمته لم يدم طويلاً، فواصل حديثه بهدوء أكثر رهبة من الصمت، صحيح ليس خطأ هنا ويهون إلى جنبه الغضب المدوي.

– ابن الكلب... الويل لك... الويل لك أيها الكلب الحقير.

تسمر سلمان في مكانه أيضًا مختطف الوجه مصفرًا كأن الدم توقف عن الجريان في عروقه، مستسلمًا، ذاهلاً، خائفًا، يائسًا، أدرك توه أن تهديد العريف له لم يذهب أدراج الرياح هباءًا، وأنه وقع تحت طائلة عقاب القضاء والقدر...كل ذلك كان يجري

أمام الأسرى على مسمع منهم دون مرأى لأنهم كانوا معصوبي الأعين، أشار العريف إلى باب الخيمة يأمره بالخروج إلا أنه من الخوف والارتباك لم يستطع أن يتحرك فضاق صدر العريف، ولاحت في عبوسته بوادر الثورة، ثم زمجر صائحًا:

- هيا اخرج، تحرك أمامي، ألم أخبرك قبل قليل ألا تعيد هذا الفعل؟ حل عليك العقاب الآن، هيا... هيا معي إلى السيد آمر اللواء وهناك ستجد ما وعدتك به.

قبض على زنده وسحبه منها بغلظة ثم دفعه بقوة خارج باب الخيمة، فاندفع بقوة الدفعة القوية وكاد يقع على وجهه بعد أن تعثر بأحد الأسرى، سحبه بقوة كأنه قصاب يسوق شاته إلى المذبح، وسلمان يعرف ذلك تمامًا، تثاقلت قدماه وتباطأ خلف العريف وهو يتمتم بكلمات غير مفهومة، وقد تلّون وجهه بألوان الطيف الشمسي أو قوس قزح، وجهه يتصبب عرقًا كمزنة ربيعية تعصرها ريح عاصفة...

دخل محسن على آمر اللواء تاركًا سلمان واقفًا عند عند الباب ينتظر، حاول خلالها أن يتمالك نفسه ويستعيد توازنه ويعدل من هندامه ويرتب ملابسه ومسح وتجفيف ما يمكن من عرق وجهه

وهو يتلفت حوله خائفًا، قبل أن يعود العريف بعد بضع دقائق، أخذ سلمان من يده وأدخله غرفة الآمر...

هناك؛ وقف سلمان في حالة الاستعداد مؤديًا التحية العسكرية المتعارف عليها للسيد آمر اللواء، بينما أخذ القلق والخوف ينشب مخالبه في صدره كأنها سيوف قاطعة وهو يقول في سره:

- أي شيطان أضلني حين سمحت لنفسي بالتصرف هكذا؟ عمل متهور جرى في ضميري وليته ما جرى، لكن هكذا شاءت الأقدار لترمي بي إلى هذا المأزق الأليم، على أنني وأيًا كان الأمر؛ لا يجب أن تشغلني أفكاري بما سيكون، وسأدع الأمر وأتركه لله، وحساب ما أقاسي وما هو قادم من أيامي من آلام ومخاوف.

قال سلمان ذلك في ردة شعور سلبية معاكسة قادته إلى حالة ندم طارئة، وهو يصب جام غضبه على ضمير قاده كالأعمى، ومع أن كلامه لا يقدم ولا يؤخر إلا أنه روَّح عن نفسه من خلال شعوره بالذنب وإحساسه بالحرج، ورمى عن ظهره حِمل أثقله بعض الوقت، في غفلة سرعان ما ندم عليها لاحقًا في ردة عكسية أخرى.

قال الآمر بلهجة قاضي التحقيق وهو يتساءل:

- أنت عندنا هنا جندي غير مسلح... أليس كذلك؟

- نعم... نعم سيدي.

- منذ متى؟

- منذ خمسة أشهر تقريبًا.

التفت المقدم إلى ضابط برتبة نقيب يجلس إلى جانبه وسأله:

- كيف هي أحواله؟ بصفتك مساعد آمر السرية.

- جيدة جدًا سيدي، هو جندي ممتاز أدبًا وخلقًا، جندي هادئ دائمًا ومطيع ويخدم بهمة ونشاط إلى درجة كبيرة، حتى أنه لم يتغيب يومًا واحدًا أبدًا...

ارتاح الشاب لإجابة النقيب واستبشر خيرًا بعقوبة خفيفة أقل وطأة عليه.

أخذ العقيد يتفحصه بسخط ثم قال بلهجة جافة آمرة:

- ألا تعلم أن الأوامر تقضي بمنع الاقتراب من الأسرى والتحدث إليهم مهما كانت الأسباب، وذلك لأننا على مقربة من الخطوط الأمامية للجبهة، وبإمكان الأسير الفالت الهروب سيرًا أو جريًا إذا استطاع حتى الوصول إلى المواقع الإيرانية، فإذا تسلح وأخذ رهائن معه نتيجة خطأ كخطأك،

حينها ما العمل وكيف سنتصرف، نحن نتشدد أحيانًا ونبالغ تنفيذ الأوامر والتعليمات من خوفنا عليكم وحرصنا على الأوضاع الطبيعية داخل الوحدة العسكرية، لذا من يخالف يعرض نفسه لأقصى العقوبات الصارمة.

فازداد الشاب ارتباكًا وحياءً لكنه لم يفقد الأمل بعقوبة مخففة:

– نعم سيدي أعرف ذلك، أنا آسف لقد كان الأسرى المساكين عطشى كثيرًا وطلبوا الماء بنفسهم.

– حسنًا وبسبب موقفك الإنساني وشهادة السيد النقيب بحقك سأخفف العقاب عنك...

ثم التفت موجهًا حديثه نحو العريف محسن:

– أفهم من كل هذا ما زال الأسرى في قيودهم معصوبي الأعين، أليس كذلك؟

– نعم سيدي.

– لا...لا، كيف تبقون الأسرى على حال كهذه حتى هذه اللحظة؟

– لا أوامر عندنا سيدي بفك قيودهم وعصابة أعينهم وإطعامهم.

– أف؛ أنا آسف لقد نسيت وكان يجب على أحدكم تذكيري، في زحمة واجباتي العسكرية نسيت واجباتي الإنسانية، أحيانًا نحتاج إلى مواقف إنسانية وليس إلى أوامر عسكرية... ماذا لو احتاج أحدهم قضاء حاجته، هل سيفعلها على نفسه؟ ولهذا أعتز بمبادرة سلمان الإنسانية، لكن لابد من عقابه حتى نتجنب الفوضى والارتباك في عملنا، حسنا الآن استلم الأوامر بفك قيودهم وعصابة عيونهم حتى الانتهاء من وجبة الغذاء التي يجب الإسراع بها، وتشديد الحراسة بمضاعفة عدد الجنود حتى ينتهوا من تناول غذائهم، والآن اسقوهم الماء ولا تؤذوهم ولا تضربوهم، أما سلمان فضعه مع الأسرى في الخيمة ولا يخرج منها حتى أنظر بأمره بعد عودتي من لقاء قائد الفرقة.

– نعم سيدي.

اقتاد سلمان من يده وأخرجه من أمام الآمر وقرّبه من خيمة الأسرى، وعند باب الخيمة واصل رمزي صمته وظل صامتًا فيما بعد، كأنما لا يدري من الأمر شيء، قبل أن ينتهز فرصة انشغال محسن بإحضار جنود إضافيين حتى اقترب من سلمان وهمس بأذنه لائمًا معاتبًا:

- ألم أحذرك وأقل لك لا تفعل ذلك؟ لكنك لم تستمع إلى نصائحي وهذه هي النتيجة.

- حدث ذلك لأنك حمار، للمرة الثانية لم تستطع تنبيهي وتحذيري.

- لم أستطع، كل مرة أجد نفسي متفاجئًا أمام عريف محسن بحيث لم أجد الفرصة المناسبة والوقت الكافي لتحذيرك.

ابتسم سلمان هذه المره ابتسامة المتمكن الظافر وقال بزهوٍ وفخر:

- لا تحزن يا رمزي لقد جاء عملنا بالفائدة وحقق نتيجة طيبة، لولاه ما أمر آمر اللواء بفك قيود الأسرى ورفع عصابة عيونهم وسقيهم وإطعامهم، وكان بالإمكان بقائهم على حالهم حتى الموت عطشًا وجوعًا بسبب الإهمال والنسيان وروتين الأوامر العسكرية.

- الحمد والشكر لله الذي هداك لعمل صالح، والشكر والحمد موصول لك يا سلمان.

رجع العريف يرافقه ثلاثة جنود مسلحين أبقاهم مع علي ورمزي على أهبة الاستعداد خارج الخيمة، ودخلها مع سلمان ليتعاونا

في فك قيود الأسرى ورباط أعينهم، غادرها وبقي سلمان معهم، وبذلك أصبح سلمان الأسير رقم ١٣.

• • •

بعد عشر دقائق عاد العريف يحمل دلوًا من البلاستيك مملوء بالماء وأخذ يسقي الجنود الأسرى الماء واحدًا تلو الآخر، مستطلعًا الوجوه الشاحبة والأجسام المتعبة الممددة أمام ناظريه، كأنه يريد إعادة تشكيلها من جديد، ثم أشاح بنظره إلى جهة أخرى وغيّر من ملامح وجهه وتحدث حديثًا مغايرًا، لعله فهم أو اقتنع أخيرًا أنها وجوه تحملها أجساد نال منها الإعياء والتعب والذل والخوف كل منال... فوجه حديثه إلى سلمان:

– هل تريد أن تشرب الماء أنت أيضًا ؟

سكت سلمان هذه المرة ولم يجب، هو الذي أطال السكوت موجهًا نظرة غضب حارقة إلى محسن من تحت الأفق، لعله رغب في إغاظته ولم ينل وسيلة غيرها، فالسكوت خير جواب أحيانًا، التفت محسن إلى أسراه موجهًا كلامه إليهم:

– من فيكم يجيد العربية أو يفهمها على الأقل؟

اثنان رفعا يدًا، سر هذا العريف وأفرحه كثيرًا، ارتسمت ابتسامة خفيفة على شفتيه ضاقت بها ملامح الوجه المكفهر العابس، وسرعان ما نبذها وهلل صائحًا بصوت مسموع:

- اثنان من اثني عشر، نسبة عالية جدًا، كل مرة نأسر العشرات بل المئات ليس من بينهم من يجيد أو يفهم العربية، إذن اسمعا أنتما الاثنان، الآن إلى الحمام على ثلاث دفعات، أربعة أسرى في الدفعة يحرسهم جنديين وأنا معهم، وهكذا لا تذهب دفعة حتى تعود التي قبلها، أما أنت يا سلمان، الآن انتهت فترة حراسة صديقك رمزي وسيذهب إلى الاستراحة مع علي وسيحل محلهم هؤلاء الجنود، بإمكانك أن تنادي عليهم إذا احتجت إلى شيء ما، أنتم تعرفون بعضكم وهم على درايه أنك جندي عراقي تحت العقاب بأمر السيد آمر اللواء ولست أسير إيراني، أوصيك أن تكون مؤدبًا وهادئًا ولا تتحدث إلى الأسرى أبدًا، وأنا أعدك أنني سوف أكلم السيد آمر السرية ليتحدث بدوره إلى السيد آمر اللواء ليسامحك ويرفع العقوبة عنك مساء هذا اليوم أو صباح الغد على الأكثر، أما وجبة الغذاء فستصل بعد ساعة من الآن تقريبًا فاستعدوا لذلك.

خرج الأشخاص الأربعة من الخيمة وتركوا ثلاثة عشر أسير داخلها.

• • •

أمضى الأسير رقم ١٣ الدقائق الأولى هادئًا ساكنًا لا يأتي حراكًا، كأنه صنم من طين لا حياة فيه، يجلس على الأرض متربعًا وقد أغمض عينيه كأنه لا يريد أن يرى أو يسمع شيئًا، يغوص في أعماق أفكاره حاملاً دنياه وهمومها على كتفيه، كأنه لا يدري أو لا يريد أن يدري ما يجري له.

لم يكن معتادًا على هذا الإحساس من قبل، بينما ظل الاثنا عشر أسيرًا ينظرون إلى الوافد الجديد وعلامات الرهبة والدهشة تملأ وجوههم مرة، ومرة أخرى علامات الاستفهام والاستغراب والحيرة، وهم عابسو الوجوه وقد وقع الاكتئاب والخوف قاسمًا مشتركًا فيما بينهم، خاصة أنهم استمعوا لما جرى بينه وبين والعريف محسن أثناء سقيه لهم الماء في كل مرة، وبدأ الهمس والأحاديث الجانبية بينهم وهم يتحدثون باللغة الفارسية، وسلمان يستمع إليهم دون أن يفهم شيئًا، تساءل أحدهم:

– هذا من يكون؟ نحن لا نعرفه، واضح أنه ليس واحدًا منا.

وقال أحدهم مرتبكًا:

- هذا جندي عراقي وضعوه بيننا ليتجسس علينا.

فردَّ عليه آخر كأنه وجد حلاً للمسألة الكبرى:

- وهل هم بحاجة للتجسس علينا نحن الأسرى حتى يضعوا واحدًا منهم ويزجوه بيننا؟

آخر... وهو الجندي الذي طلب الماء باللهجة العراقية:

- إنه الجندي الذي حاول أو بادر إلى سقينا الماء، لقد استمعت وفهمت الأحاديث التي دارت بينه وبين العريف باعتباري أجيد اللغة العربية كما حصل أمامكم.

وقال آخر:

- نعم صحيح، أنا شاهدته وهو يدخل الخيمة مرتين ويسقينا الماء، لم تكن عصابة عيني مشدودة بشكل محكم وكنت أرى بوضوح ما يدور حولي من عيني اليمنى فقط، نعم هو بنفسه.

وقال آخر وقد رفع صوته قليلاً وقد انفرجت بعض من أساريره:

- نعم صحيح، اعتقادكما في محله، كذلك أنا أجيد اللغة العربية كما تعلمون، وأعتقد هو هنا عقابًا له، إنه يُعاقَب من أجل ذلك.

هناك رغبة أو فضول بشري يدفع للتعرف على هذا الوافد الجديد، أحد الأسرى وجَّه حديثه إلى سلمان باللهجة العراقية المحلية، رفع حاجبيه وفتح مقلتيه ولاحت في عينيه نظرة مقرونة بالشك والدهشة وقال باهتمام:

– أنت أيها الرجل؛ لو سمحت... السلام عليكم.

حرَّك سلمان رأسه إلى الأعلى قليلاً رافعًا نظره من على الأرض موجهًا اهتمامه نحو محدثه:

– وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته.

– من أنت؟ من تكون؟ ولماذا أنت هنا؟ هل أنت جندي عراقي أم ماذا؟

فقال سلمان بلهجة لا تخلو من امتعاض:

– نعم أنا جندي عراقي... وبينكم هنا عقابًا لي لأني سقيتكم الماء.

– ولماذا أنت هنا معنا وبيننا وليس في مكان آخر، خيمة أخرى مثلاً؟

– إنها رغبة السيد الآمر، كذلك ليس هنا خيمة أخرى للمعاقبين بالسجن.

فرد أسير آخر كأنه يعبر عن بعض ارتياحه:

- كما توقعنا..

«قالها بالعربية الفصحى بلكنة مصرية»، ثم بدأ يتحدث بالفارسية مع رفاقه كأنه يترجم لمن لا يفهم العربية ما دار من حديث مضى.

لم يعد سلمان يواصل مداراة حيرته أو يبالي بما سيحدث فسألهم بصوت مرتفع بعض الشيء:

- لاحظت واستمعت إلى بعضكم يتحدث باللغة العربية بطلاقة وسهولة كأنه عراقي؟!

فعاد ذات الأسير الأول إلى الكلام وقال بحماس شديد كأنه يفتخر بنفسه:

- نعم أنا اسمي «حنون زامل» جندي إيراني من عرب الأهواز وأتحدث العربية بلهجة أهل الأهواز، والتي تشبه دائمًا لهجة الناس في جنوب العراق والخليج.

- لاحظت ذلك وأنا مسرور جدًا لك يا أخ حنون وبرفاقك الأسرى، ولكن هل من آخر بينكم يتحدث العربية غير حنون زامل.

فرد الثاني بلهفة كأنه كان ينتظر دوره في الحديث:

- نعم أنا هاشم مجيدي؛ جندي إيراني من أب إيراني وأم عربية مصرية، حرصت أمي على تعليمي لغتها العربية منذ طفولتي فلم تكن تتحدث معي إلا بالعربية وباللهجة المصرية، في دراستي التحقت بكلية اللغات قسم اللغة العربية جامعة طهران، حيث تعلمت العربية الفصحى وحصلت على شهادة جامعة أولية، ثم تابعت دراستي في جمهورية مصر العربية ونلت من هناك الماجستير باللغة العربية وآدابها، وكنت أقوم بواجب الترجمة داخل المعسكر مع الأسرى العراقيين.

ابتسم سلمان ابتسامة خجولة كأنها خرجت منه دون أن يدري:

- وستستمر الآن بواجب الترجمة أيضًا ولكن مع الأسرى الإيرانيين وبالاتجاه المعاكس!

ضحك الاثنان وضحك معهم الباقون حين نقل هاشم مجيدي ما دار بينهما إلى الفارسية وكانت أول ضحكات بريئة، بمرور الساعات وجد منهم ترحيبًا كبيرًا واستحسانًا عظيمًا، معبرين عن رغبتهم وبالغ سعادتهم بمزيد من التعارف، ورجوه أن يبدأ بنفسه، فقال ببساطة وصدق وهو يفيض فرحًا وسرورًا:

- وأنا أيضًا، يسرني ويسعدني أن يتم التعارف بيننا على أكمل صورة لذلك سأبدأ بنفسي..

وبدأ بنفسه متابعًا بهدوء:

- اسمي سلمان داود... متخرج من كلية التربية قسم التاريخ جامعة بغداد وحاصل على البكالوريوس، كنت قبل التحاقي بالجيش أعمل نجارًا في معمل صغير خاص تملكه الأسرة وهذه مهنتي بالوراثة، عمري الآن يقترب من التاسعة والعشرين عام، متزوج ولي ولد واحد عمره أقل من سنة اسمه رامي.

ثم بادر هاشم إلى الحديث:

- أعرفك أولاً بالملازم الأول طبيب العيون المجند الدكتور فرهاد كريمي، وهو من سيتحدث عن نفسه الآن.

- أنا فرهاد كريمي طبيب عيون حاصل على البكالوريوس من جامعة طهران، وأكملت دراستي العليا في جامعة موسكو في الاتحاد السوفيتي، وحصلت على الماجستير في طب وجراحة العيون، وعند عودتي إلى طهران جندت في حرس الثورة، وكنت أشرف على علاج الجرحى والمصابين من الجنود الإيرانيين والعراقيين على حد سواء، من إصابتهم في مختلف أنحاء الجسم وخاصة في منطقة الرأس والعينين، وكذلك أساهم في تقديم الإسعافات الأولية لهم في مستشفى الميدان العسكري قبل نقلهم إلى العمق الإيراني.

وهكذا تتابعت سلسلة التعارف بين الوافد الجديد والأسرى وفي كل ملفاتها حتى النهاية، وعَرفَ عنهم إنهم مجموعة صغيرة من وحدة عسكرية أكبر، استولى الجيش العراقي على معسكرهم في معركة الليلة الماضية، قُتل من قتل منهم، وجرح من جرح، وهم ربما الوحيدون الذين بقوا على قيد الحياة وساقتهم أقدارهم إلى الأسر، مؤكدين أنهم يجهلون مصير باقي رفاقهم!

وهكذا توطدت أواصر المحبة والصداقة بين الأسرى الثلاثة عشر وجمعت الألفة بين قلوبهم، ومن الأوقات الأولى كأنهم جبلوا عليها وتواصوا بها ولم يبقَ إلا التنفيذ والذي تم الآن، ورب ضارة نافعة كما يقال.

وتقبل سلمان ما آل إليه مصيره في دعة وسماحة ورباطة جأش، وبعد ذلك بالصبر واللامبالاة رغم ما أصابه في البداية من خوف وجزع وندم، وكان عزاءه الوحيد أنه لم يأتِ ذنبًا خلاف تعاليم دينه وضميره قد يندم عليه في يوم من الأيام، ودفع أفكاره في أعماق ذاته وداري بها مداراة من لا يستطيع الاعتراف بوقعها وحقائقها، ولو بينه وبين نفسه، مع حرصه كل الحرص أن يحافظ على وقاره وحزمه وما يصدر عنه من قول وعمل، وبلطف ولسان حاله يقول:

– رب صدفة خير من ألف ميعاد.

حيث أرادوها عقوبة له يعيش بها مقيدًا بين الأسرى الأعداء ويذوق بالمكيال الغليظ ما يتذوقونه من ذل وهوان مثلهُ مثلهم لفترة من الزمن مهما طالت أو قصرت، لكن الظروف الإنسانية جمعت القلوب الرحيمة الملتاعة بغدر الأيام، والمثخنة بجراح تصلب القادة وتهورهم، جمعتهم على الحب والود رغم كل الظروف والرياح المعاكسة التي كانت في اجتماعهم تحت خيمة واحدة، جمعتهم الصدفة وحدها وظروف الأسر إلى صداقة ربما ليس لها مثيل، أو على الأقل قل مثيلها في تاريخ الحروب والنزاعات المسلحة بين بني آدم منذ قتل قابيل أخاه هابيل، ومحبسه يبدو هزيمة له، لكنها كانت هزيمة مؤقتة سرعان ما انقلبت فوز بعد حين!.

• • •

لم يخلف العريف محسن وعده، لقد حضر طعام الغذاء بموعده المقرر بعد ساعة، فتحدث إلى الأسرى يزهو كأنه الآمر الناهي في هذه الدنيا ذات الأفق الضيق، مبدئيًا أَسَرّهُ وأفرحه كثيرًا وجود أسيرين يجيدان اللغة العربية، عِبارة أعاد ذكرها وقد بدت

ابتسامة خفيفة ترتسم على شفتيه، هي بالحقيقة فضلات ابتسامة عميقة وكبيرة حاول حبسها بالمسافة القصيرة بين قلبه حيث نبعت منه إلى شفتيه التي رفضتها وحاولت كتمها، ومع ذلك وصل منها القليل فأنار الوجه المتجهم العابس، وظهر يشع نورًا كالمصباح، وهلل صائحًا بصوت مرتفع موجهًا حديثه نحو الجنديين:

- اسمعا؛ الآن الساعة العاشرة صباحًا تقريبًا، سيتوفر لكما نصف ساعة من الوقت أي عند الساعة العاشرة والنصف، يكون الجميع قد انتهى من مراجعة الحمامات حيث تقضون حاجتكم وتغسلون أيدكم ووجوهكم فقط، تغادرون الخيمة على ثلاث مجموعات، كل مجموعة تتكون من أربعة أشخاص، ولا تغادر المجموعة التالية الخيمة إلى الحمامات حتى تعود المجموعة التي قبلها، وهكذا حتى النهاية للمجموعات الثلاث، تمامًا كما كان الحال معكم قبل ساعة، على أن تنتهون من تناول طعامكم بعد نصف ساعة أخرى، أي عند الساعة الحادية عشرة، سأحضر بعد ساعة من الآن أجد كل شيء قد انتهى، انقلا ما قلته لكما بالفارسية إلى باقي رفاقكم، هل فهمتم أم أعيد لكما ما قلته؟.

رد أحد الأسرى غاضبًا معبرًا عن انزعاج كامن داخل عقله وقلبه:

– مفهوم... مفهوم... فهمت... فهمت... فهمت...

أخذ الجنديان يمليان ما سمعا من محسن على باقي في رفاقهم بينما التفت هو إلى حفنة من جنود الحراسة، والذين كانوا بكامل بزاتهم وتجهيزاتهم العسكرية القتالية، مُمليًا عليهم تعليماته معيدًا لها على أسماعهم، منبهًا عليهم أن يحرسوا المجاميع الثلاث جيدًا خارج الخيمة، ولا يتحدث الجنود إلى الأسرى أبدًا، وتجنب اقتراب المسلحين منهم مع الحذر ألا يخطف أحدهم سلاحًا، كذلك عليهم أن يحسنوا معاملتهم ولا يتعرضوا لهم بالأذى أو الإهانة، مُذكر بزميلهم الجندي سلمان وأن يمنحوه قصعة طعام خاصة به إضافية، قبل أن ينصرف أبلغ سلمان بقوله:

– السيد العقيد الركن آمر اللواء قد غادر الموقع الآن إلى حيث لا أدري، والانتهاء من عقوبته بقيت مرهونة بعودته، لأن مقدم اللواء البديل الذي حل بديلاً عنه رفض رفع العقوبة، وقال إنك تستحق عقابًا أكثر من هذا، وبصراحة لو كنت أنا في حينها مصدر القرار لرميته في السجن تمهيدًا لإحالته لمجلس عسكري، فلا يستطيع أحد التصرف بها حتى آمر السرية،

هكذا قال حين تحدثت إليه وها أنا ذا أعيد ما قاله عليك (ثم انصرف)..

كانت الحمامات التي يغتسل بها الجنود العراقيين والأسرى الإيرانيين عبارة عن خزانات ماء متوسطة الحجم مصنوعة من اللدائن، خلف ساتر ترابي وسط أرض خلاء مكشوفة عند طرف المعسكر البعيد بالاتجاه المعاكس لاتجاه جبهة القتال، يُسيطر على الخزانات بواسطة حنفية يشرف عليها أحد الجنود، كان يصيح بين فترة وأخرى:

- لا تهدروا الماء هكذا، لا تسكبوه على الأرض، لا يوجد ماء كافي هنا نحن في الصحراء...

«ثم يتابع حديثه»...

- اذهب أنت كفاك، أنت أيضًا كفاك، لا تبقَ واقف هكذا هيا تحرك التحق مع مجموعتك بسرعة، عودوا إلى الخيمة حتى تمنحوا الوقت الكافي للمجموعة الثانية.

أحد جنود الحراسة:

- أنتم الأسرى الأربعة هل انتهيتم؟، لقد تأخرتم كثيرًا، هيا إلى الخيمة بسرعة حتى يأتي أربعة غيركم... هيا بسرعة.

وهكذا أخذ جنود الحراسة المجموعة الأولى وعادوا بهم إلى الخيمة، ثم أحضروا أربعة غيرهم، وتكرر ذات المشهد للمرة الثانية والثالثة، حتى تمت عملية الاغتسال وقضاء الحاجة، رافقتها رياح سريعة وزخات مطر قوية ساهمت كثيرًا في سرعة الحركة، مع ذلك تأخرت ربع ساعة عن الوقت المقرر لها، تناول الأسرى وجبة طعامهم معًا بعد تفهمهم لبعضهم لأول مرة، تحيط بهم هالة من الحزن لما هم فيه من حال.

تكرر تناول الطعام بينهم في جلسة الساعة السادسة مساءً، وكانت حالهم هذه المرة أفضل مما كانت عليه عند الضحى، حتى جاء الليل وحل الظلام، فرمى المساكين أجسامهم المتعبة في أحضان النوم الذي استقبلهم مرحبًا، وتقبلهم في ملكوته، وعلى ما تيسر من فراش بسيط على أرض الخيمة، واضعين رؤوسهم الصغيرة المثقلة بهموم الحياة وغدها المجهول على أجساد بعضهم البعض، كيف يمكن لثلاثة عشر رجلاً النوم في خيمة صغيرة مستطيلة الشكل أبعادها ٣ × ٤م! لا يستطيع الناظر فيهم أن يعرف رأس من فيهم على صدر من منهم، وهذه السيقان المتشابكة لمن، إنه نسيج العنكبوت بعينه، يتوسطهم الأسير رقم ثلاثة عشر، الذي أصر أن ينام وسطهم كالقمر وسط النجوم في

كبد السماء، مرحبين به ومرحبًا بهم، ولم يستفيقوا حتى مطلع شمس صباح يوم جديد، حين دخل عليهم العريف محسن برفقة ثلة من الجنود المدججين بكامل أسلحتهم وتجهيزاتهم ومرتدين ملابس المعركة كما هي العادة، وكما هو دائمًا صاح محسن بالأسرى بصوت مرتفع حاملاً لعصى تبختر بيده اليمنى:

- هيا... هيا... انهض... انهضوا جميعكم وبسرعة «ملوحًا بالعصا» ومن يتأخر منكم افتح له رأسه بهذه العصا.

«ثم تابع بأسلوبه العصبي الحاد»:

- انهض، أنت هيا انهض..

صائحًا على أحد الأسرى وكان بطيء الحركة، ظهر فيما بعد أنه كان مريضًا، أنهضه ماسكًا له قدم بقدم فنهض الأسير متهالكًا كأن حمل ثقيل على ظهره... ثم التفت محسن إلى سلمان قائلاً:

- أما أنت فقد تحدثت مع آمر السرية توًا للمرة الثانية، أخبرني أنه سيعيد المحاولة مع مقدم اللواء، فلا يستطيع أحد غيره التصرف ويرفع العقوبة عنك، لذا ستذهب إلى الحمامات وتتناول طعام الإفطار مع الأسرى هكذا أخبرتك بالأمس وها آنذا أعيدها على مسمعك اليوم، لعل السيد آمر اللواء يعود

قريبًا، أما أنا فستنتهي مهمتي بعد ساعة من الآن، وسيحل محلي رئيس عرفاء قاسم محمد كضابط خفر.

فرد عليه سلمان متظاهرًا بالجد:

- إن شاء الله لا يرجع أنا مرتاح هنا معهم ولا يهمني من أمرك وأمر أمراءك أي شيء.

لعل قلبه لم يعِ ما قال، لكن لسانه قال ما ينبغي أن يقال.

سمع محسن كلام سلمان وفهم مغزاه ومعانيه، فبادل سلمان ابتسامة خفيفة لأول مرة، تمتم سلمان كأنه يحدث نفسه:

- لأول مرة أرى هذا العريف يبتسم، وإن كانت ابتسامة مسمومة لكنها مقبولة منه..

ثم تابع كأنه وجد عذرًا لينصف به العريف محسن:

- ما للرجل من ذنب أنه يقوم بأداء واجبه، يجب عليه أن يكون هكذا، صارمًا حازمًا، حتى أنا سأكون مثله لو كنت مكانه.

بظروف جوية هي الأفضل خلال الأيام القليلة الماضية؛ غادر الأسرى خيمتهم إلى الحمامات، وأعيد تكرار ذات السيناريو الذي كان ضحى الأمس ومساءه يؤدون تحية الصباح مع بعضهم بقلوب مكسورة وخواطر مهزومة، لم يكتفِ سلمان بتحية

صباحية واحدة جامعة بل تناولهم أفرادًا في محاولة تعد ناجحة بظل ظروف الأزمة للتخفيف من هول مصاب يعيشونه:

- كيف قضيت الليلة الماضية يا بهمن؟ هل حلمت أحلامًا سعيدة أم كوابيس مزعجة؟.

فرد عليه الأسير باسمًا، لعلهم جميعًا رضخوا مُسَلمين للأمر الواقع:

- لقد ألقيت بنفسي كالميت من شدة التعب، ولم أدرِ ما إذا كنت حلمت أم لا حتى حضر عريفكم هذا وأيقظني من منامي.

ثم تساءل:

- وأنت يا سلمان، كيف قضيت ليلتك؟ أنا تواق لأستمع إلى ما رأيته في منامك، بالمناسبة عندنا هنا بهزاد نبوي يستطيع تفسير الأحلام وبدقة ومهارة عالية.

فرد سلمان باسمًا:

- الحمد لله، لقد ذهبت في إغفاءة عميقة، من أين يأتي لي الحلم في منام وأنا أضع رأسي على بطن أحدكم، وسرعان ما وجدت نفسي محاصرًا بساقين ممدودتين فوق بطني، وساقين

آخرين فوق ساقيّ وبالاتجاه المعاكس، فسلمت أمري لله ونمت هكذا.

ضحك سلمان بقناعة وشاركه بهمن بضحكة مجاملة فلكل منهما ظرفه الخاص مما هيأ فرصة ذهبية ثمينة استغلها سلمان ليبدأ بث مجاملاته اللطيفة على أكمل وجه، حتى أثناء تناولهم طعام الإفطار واستمر الوضع إلى ما بعد ذلك، لما لا وقد بدأ الجميع واحدًا تلو الآخر يزج نفسه مشاركًا مشاركة روحية ووجدانية، يمتحن ويختبر قدراته على ما تسعفه قريحته، وخلد في ذاكرته من بديع الكلام ولطيفه، آية من الذكر الحكيم، أو السنة النبوية الشريفة وما جاء عن الأئمة الأطهار، حكمة أو قول مأثور.

كيف يمكن لمن يعيش ظروف الأسر وفي يومه الأول أن يتقبل النكتة والطرفة ويجد الطريق السالكة إلى الضحكة والابتسامة وإن كانت للمجاملة والقول الحسن؟! مما جعله الحبيب الأول لقلوبهم، ولا عجب أنه يشعر الآن أن الدور الذي يلعبه في حياتهم له من الأهمية والخطورة كأنه أمل الحياة الوحيد المنشود، حين يواسيهم في محنتهم، ويخفف عنهم وطأة خيبة الأمل والخذلان التي يعيش بها كل أسير في أي مكان وهو بعيد عن أهله ووطنه يواجه مصيره المجهول، إذا أخذنا بعين الأعتبار أن هذا كله

وقع أو تم خلال ٢٤ ساعة فقط، من ضحى يوم حتى ضحى اليوم التالي.

أليس في الأمر كثير من الغرابة والأكثر والأكثر من العجب، هذا هو الإعجاز الذي تمكن سلمان منه، وهذه هي قدراته الفريدة وهذه هي إمكاناته الفذة!

• • •

اقترب الدكتور فرهاد من سلمان كثيرًا وجعل حنون يهمس بأذنه بدلاً عنه:

– الدكتور فرهاد يسألك هل تعاني من مرض في عينيك يا سلمان؟

ذهل سلمان وشدته المفاجأة لسؤال كهذا:

– وما أدراك يا دكتور؟ كيف علمت بذلك؟ من قال لك؟

– لم يقل لي أحد، ولكني لاحظتك ليلة أمس وأنت تواجه مشاكل واضحة في النظر.

– مثل ماذا يا دكتور؟

– أنا متأكد أنك تعاني من العشى الليلي، هذا واضح من خلال تعثرك بنا وبالأشياء القليلة من حولنا، حتى كدت أن تسقط

مرة على الأرض، وكذلك لاحظت صعوبة واضحة على قدرتك في إيجاد مكان مناسب لجلوسك مع تواجد أماكن متعددة شاغرة للجلوس طبعًا وليس للمنام، كما أنك تعجز عن إيجاد الأشياء التي تحتاج لها أو الأشياء التي تسقط من يدك، حتى أنك عجزت عن التقاط مفتاح سقط من يدك نهار الأمس، مع أنك بذلت جهدًا واضحًا في محاولة التقاطه بدون فائدة، حتى رفعه أحدهم بعد أن باءت محاولاتك بالعثور عليه بالفشل، مع أنه كان أمام عينيك وتحت نظرك، والآن ونحن في النهار أيضًا ودخل بعض الضوء إلى الخيمة وإن ما زالت شبه مظلمة؛ فإنك ما زلت تعاني، كل هذه ملاحظات أولية ربما أكون على خطأ.

- لا.. لست على خطأ يا دكتور، بل على صواب، كل الصواب، هذا كله في يوم واحد؟!
- نعم هل نسيت؟ أنا طبيب عيون..
- يبدو أنني اليوم أمام طبيب عيون متمكن، ذو فطنة كبيرة وذكاء خارق!

- الحمد لله... هذا مدح مبالغ فيه وإطراء قد لا أستحقه منك يا سلمان، لأن ملاحظات كهذه يمكن أن يستشعرها أي شخص عادي.

- كل ما قلته صحيح تمامًا، وقد أصبت قلب الهدف وتستحق الميدالية الذهبية.

- أخبرني عن معاناتك الآن يا سلمان حتى تتكون فكرة واضحة عندي عن طبيعة مرضك وما تعاني، وسأحاول تفحص عينيك في مكان آخر غيره، النور هنا قليل داخل الخيمة، أحتاج إلى ضوء أكثر من هذا، كذلك نحن الآن لا نملك أدوات وأجهزة الفحص الطبية المناسبة.

شكره سلمان وهو مسرور وأخذ يتحدث له عن حالته المرضية بالتفصيل الممل، حتى تكونت عنده فكرة واضحة.

أدخل رمزي رأسه داخل الخيمة مؤديًا تحية الصباح على صديقه وزميله ومن معه:

- صباح الخير يا سلمان... صباح الخير عليكم جميعًا.

فرد عليه الجميع التحية بأحسن منها.

استمر الرجل يتحدث بصوت هادئ تخللته رعشة متهدجة عبَّرت عما يغلي ويفور في داخله من غضب كامن وغيظ مكبوت.

- استلمت الآن نوبة الحراسة وسأبقى معكم يا سلمان حتى الساعة الرابعة بعد الظهر ولمدة أربع ساعات، فإذا احتجت إلى شيء فبإمكانك أن تنادي فأسمعك، غادر عريف محسن الآن وحل رأس عرفاء قاسم بديلاً عنه، لقد بذل الرجل وأنا معه كل جهد ممكن لرفع العقوبة عنك، ولكن هذه هي حدود قدراتنا، آمر اللواء غير موجود ورفض مقدم اللواء المتعجرف رفعها أو تغييرها على الأقل رغم تدخل آمر السرية لمساعدتك.

- شكرًا لكم يا رمزي، أنا أعرف جيدًا أنه ليس بإمكانك أن تفعل شيء، ولكن أخبرني أين كنت من صباح الأمس حتى هذه اللحظة.

- لقد انتهت نوبة حراستي عند ظهر الأمس، ثم استلمت نوبة جديدة عند منتصف الليل، أدخلت رأسي هكذا داخل الخيمة، لأحدثك، ولكني وجدتكم نائمين جميعًا لا أسمع سوى أصوات شخيركم وأشم رائحة أقدامكم الكريهة، فأبقيت لساني داخل فمي ورأسي خارج الخيمة ولذت بالفرار.

- حسنًا فعلت وشكرًا لك، والآن أذهب قبل أن يلمحك أحدهم وتصبح لويس الرابع عشر... أقصد الأسير الرابع عشر.

تساءل حنون:

- هل يمر الأسرى الإيرانيون من هنا دائمًا؟

- أسرى العمليات القتالية في هذا القاطع فقط يمرون من هنا دائمًا خلال مقر اللواء يمكثون هنا ساعات قليلة ولكن هذه أول مرة والليلة الوحيدة التي يبات بها الأسرى هنا، وهذه أول مرة أشاهد أسرى وأتحدث إليهم عن قرب هكذا، كنت دائمًا أرمقهم من بعيد.

- ونحن أيضًا جميع الأسرى والجرحى منهم على وجه الخصوص والذين بحاجة إلى إسعافات أولية سريعة أو خدمات طبية مستعجلة وطارئة، يمرون من خلال المستشفى الميداني لوحدتنا العسكرية قبل نقلهم إلى العمق في إيران.

وردد سلمان سؤالاً كان متلهفًا للنطق به:

- كيف يعاملون الأسرى هناك على الجانب الآخر من الحدود؟

فقال حنون ببساطة وصدق:

- هو أسير ليس أكثر، يكفي أنه أسير ليساق بالذل والهوان، كيف تراهم يعاملون الأسرى هنا توقع نفس المعاملة هناك.

فرد عليه سلمان مؤيدًا لكلامه:

- صحيح كما قلت هو أسير ليس أكثر، يكفي أن تعصب عيناه وتقيد يداه ويسحب قسرًا إلى مصيره المجهول ليشعر بالذل والهوان، لكني أرجع وأقول لكم لم أرَ أسيرًا مر من هنا وتعرض للضرب والإهانة، هم فقط يقيدون أيديهم للأمان، ويعصبون أعينهم عند نقلهم من مكان إلى آخر حتى لا يتعرف الأسرى على معالم الطريق الذي يمرون به.

فهز هاشم رأسه كالآسف وهتف متأففًا:

- هناك أيضًا يفعلون ذلك...

• • •

بعد ساعتين تقريبًا توقفت سيارة عسكرية كبيرة نوع «إيفا»، محروسة بسيارتي جيب عسكريتين، ربما هي ذات العجلات التي جاءت بهم فجر الأمس، توقفت العجلات الثلاث وسط المخيم بقيادة ضابط شاب برتبة ملازم، دخل مقر القيادة بينما وقف

باقي مرافقوه من المراتب في انتظاره خارجًا، فأقبل رمزي مهرولاً صوب الخيمة وزج رأسه بداخلها، لاهثًا مبتل الجبين مورد الوجه ليخبر سلمان بوصول العجلات الثلاث:

- سلمان... سلمان... أين أنت يا سلمان؟ اسمع وصلت الآن العجلات الثلاث لنقل الأسرى إلى موقع تسفيرات الفيلق.
- ربما.
- وأنت ماذا عنك؟ هل يأخذوك معهم؟ أم تبقى هنا؟
- لست أدري... مهما يكن الأمر، فليكن.
- تبدو يائسًا أو خائفًا؟ وهذا ليس من طبعك أبدًا، أعرفك صبورًا شجاعًا واثقًا من نفسك.
- لا...لست خائفًا ولا يائسًا، لكن دع الأمور تأخذ مجاريها كما يشاء لها الباري عز وجل، مادمنا لا نستطيع تغيير الظروف من حولنا.
- يعني تأخذ كلام الشاعر الذي يقول: دع الأيام تفعل ما تشاء وطب نفسًا إذا نزل البلاء.
- آ آ آ... رحم الله والديك في الدنيا والآخرة، ألم أقل أنت صرت ذكيًا في الفترة الأخيرة، ولأول مرة ترتقي بذكائك فوق مستوى ذكاء الحمير، ولكني أستغرب كيف تمكنت من

القفز هكذا بسرعة من دون إلى فوق مستوى الحمير، دون أن تمر بمرحلة التوافق.

وهذا ما كان فعلاً، وكما كان متوقعًا، هذا الرتل موجود هنا من أجل نقل الأسرى الثلاثة عشر إلى العمق، وقد أعيد شد وثاق الأسرى الإيرانيين الاثني عشر على الخلف، وأعيد عصب عيونهم، ما عدا سلمان بقيت يداه طليقتان وعيناه بلا عصابة.

أبي واستكبر، رفض واستنكر... كبيرة عنده أن يرى بأم عينيه أصدقاءه وقد قيدت أيديهم وأظلمت الدنيا في عيونهم، بينما هو من دونهم بلا قيود يملأ عيونه نور الشمس ويحيط به ضوء النهار، ثارت ثائرته وصرخ من أعماق روحه ووجدانه:

- لا.. لا.. لا، قيدوني.. قيدوني مثلهم وضعوني معهم.

فرددت الدنيا صدى صوته وكأن الأرض اهتزت من تحته:

- اسمع يا رمزي... قيدني واعصب عيوني.

- كيف... ولماذا؟

- ويحك لا تسأل أريد الذهاب معهم، نفذ بسرعة قبل أن يحضر أحدهم فيمنعك، هيا بسرعة ولا تضيع الوقت وتضيع معه الفرصة.

- كيف لي أن أفعل ذلك؟ لا أستطيع يا سلمان... لا أستطيع.

نهض سلمان من مكانه وتناول خرقة قماش خاكية اللون من على أرض الخيمة وعصب بها عينيه، وأحكم غلق دائرتها وهو يكيل الشتائم وثقيل الكلام لصديقه رمزي:

- الآن قيد يدي وإن لم تفعل سأطلب من جندي إيراني أن يفعل ذلك، وإن اعترضت أو مانعت سأضربك بالحذاء على رأسك الخالي من الدماغ.

- الأمر لله سأنفذ أنا خير من أن يقيدك أسير إيراني وأنت على أرض عراقية وسط معسكر للجيش العراقي، تذكرت هل تريد خداعي أيها المجنون الأحمق، كيف يمكن لأحدهم تقييدك وهم جميعهم في قيودهم، مع هذا سأفعل وأنفذ ما تريد.

نفذ رمزي صاغرًا ما أراد صاحبه وتبادل معه قبلات الوداع والأماني بلقاء قريب، وهكذا ذاب سلمان بجسده وروحه مع أصدقاءه الأسرى حين اندس بينهم وضاع في وسطهم تمامًا كما تذوب قطعة السكر وسط سائل رائق صافي، وتندس أجزاءها بين أجزاءه وتزيده حلاوة ولذة في طعمه، وعبق في أريج رائحته وزهو في صورته وشكله.

أغلق غطاء الشاحنة الخلفي على من بداخلها وغادرت العجلات الثلاثة الموقع إلى المجهول، المكان المجهول والغد المجهول إلى حيث لا يعلمون.

بينما الشاحنة تترنح في مسيرها وكأنها ترقص في وسط الطريق الترابي ومعها تتراقص أفكاره، تتطاير شاردة مبعثرة خارج رأسه الذي عجز عن لمها وجمعها.

• • •

وصلت العجلات الثلاث إلى العمق، وهناك في موقع التسفيرات الجمع المؤقت للفيلق، حيث يتجمع العدد الكافي قبل نقلهم إلى أقفاص الأسرى في المنطقة الغربية، توقفت في المكان المخصص لها، وبقيت أكثر من نصف ساعة جاثمة في مكانها بانتظار آمر الموقع ومساعديه لحضور مراسيم الاستلام والتسليم القانونية والإشراف عليها بشكل مباشر، وسط صخب وضجيج الداخلين والخارجين وزحمتهم.

وفعلاً سرعان ما حضر الرائد آمر الموقع ومساعديه في وقت اصطف جنود رتل التسليم صفًا واحدًا، استعدادًا لاستقبالهم،

يتقدمهم الملازم موعز إلى جنود بالاستعداد، ثم وقف أمامهم في حالة مشابهة لأداء التحية العسكرية اللازمة:

الرائد آمر التسفيرات:

– استرح بني...

وقف الملازم بعد سماعه هذه الكلمة وجماعته في حالة استرخاء، وأخذ يتحدث إلى الرائد مسلمًا له بعض الأوراق داخل ملف وردي اللون وهو يقول مؤكدًا:

– سيدي هؤلاء اثني عشر أسير إيراني، من بينهم ضابط طبيب برتبه ملازم أول وهذه قائمة بأسمائهم وأعمارهم ورتبهم وظروف أسرهم.

تناول الرائد القائمة وأخذ يقرأ بها مطلعًا عليها ثم أصدر أوامره إلى الحاضرين:

– هيا أسرعوا... أنزلوهم من الناقلة.

قال هذا وهو يسلم الأوراق إلى أحد مساعديه... ثم تابع قائلاً:

– اقرأ أسمائهم الواحد تلو الآخر... وكل أسير تقرأ اسمه ينزل من الناقلة ويصطف هنا.

فرد عليه مساعده:

- نعم سيدي جاهز.

ثم بدأ يهم بقراءة الأسماء واحد بعد الآخر، بدأ باسم الأسير رقم واحد دائمًا الملازم الأول الطبيب فرهاد كريمي آدي، حتى أخر اسم لجندي أسير يحمل الرقم اثني عشر، وفي النهاية صعق الجميع بالمفاجأة، مفاجأة هائلة من العيار الثقيل، مفاجأة لم تكن في الحسبان وليس لها سابقة أو مثيل، إذ كان الكلام يجري على الألسن ويدور دائمًا حول اثني عشر أسير فقط، وهذه القوائم المكتوبة تحريريًا تحتوي أيضًا على اثني عشر اسم فقط.

ولكن! هناك أسير واحد زيادة، إنه الأسير رقم ١٣ بكامل قيوده وعصابة عينيه! كيف؟ ولماذا؟ من هو؟ من يكون؟ ولماذا هو هنا موجود بجسده وروحه وغاب في عدده واسمه!.

رفع المساعد حاجبه دهشة وانزعاج... ثم سأله بصوت جهري بانت به نبرة الغضب والارتباك واضحة تمامًا وهذا أول الغيث:

- من أنت؟ من تكون؟

- أنا جندي عراقي يا سيدي.

وهو يحاول فتح عينيه بعد تلقفها الضوء بشكل مفاجئ، وقعت كلماته مدوية على مسامع الحضور، فرد عليه المساعد وعلامات التعجب والدهشة على وجهه ووجه من حوله:

- عراقي... جندي عراقي؟!

وردد جميع الحاضرين معه ذات العبارة:

- عراقي... جندي عراقي معصوب ومقيد مع أسرى إيرانيين؟!

- نعم سيدي أنا جندي عراقي.

أثار هذا الجواب موجة عجب، وزوبعة غرابة في المكان:

- ولماذا أنت مقيد ومعصوب العينين ومع الأسرى الإيرانيين؟ هكذا؟.

- أنا معاقب من قبل السيد آمر اللواء.

لف الدوار رؤوس جميع الحاضرين، إذ لا علم لأحد منهم ولا حتى بصيص علم بوجود الأسير الثالث عشر هذا.

وأخذ الرائد يتحدث مع الملازم، قائد الرتل، ومع مساعديه أيضًا وعلامات الارتباك والذهول بادية واضحة عليهم، وبدأت الفوضى تدب بين صفوفهم.

تساءل الرائد بصوت هادئ في محاولة فاشلة منه في كتم عواطفه ولجم ثورته وإخماد نار غضبه، ما دامت رعشة شفاهه وهو يتحدث تنذر بما يغلي من غضب مستعر في داخله:

- كيف يجري أمر كهذا، أنت أيها الملازم كيف تقول معك اثني عشر أسير وتحمل قائمة طويلة عريضة بأسماء اثني عشر أسير، وداخل سيارتك شخص واحد زيادة يدعي أنه جندي عراقي؟ كيف لا تنتبه لأمر كهذا؟ ها... أجب بسرعة وأعطني جوابًا مقنعًا؟

- سيدي... س... س... س... سيدي...

فقاطعه الرائد وقد احمرت عيناه من شدة الغضب:

- ماذا تريد أن تقول؟ هذا إهمال... إهمال... إهمال كبير ليس له مثيل، وسابقة خطيرة في الجيش العراقي، جريمة بحق الجيش العراقي منذ تأسيسه.

ثم عاد أدراجه بشكل مفاجئ نحو سلمان موجهًا كلامه إليه:

- تعال... تعال (للك) تعال أنت.

أسرع سلمان وما زال مقيدًا نحو الرائد مهرولاً لاهثًا.

- نعم سيدي... نعم سيدي.

- من أنت تكلم بصراحة وصدق وإلا فالويل الويل لك، سأفعل الأفاعيل وما لم يخطر ببالك لو علمت أنك تكذب.

- أنا سيدي...

واستمر يشرح للرائد وضعه وحالته، كانت الكلمات تجري على لسانه وتنساب في رباطة جأش وصفاء ذهن وحيوية، والحضور حوله ينصتون لحديثه بإمعان وهم يتطلعون إليه، استغرب بعضهم الحدث وتعجب غيرهم، بين من ثغر فاه واستنفر عيناه مبحلقًا بانتظار المزيد.

ضحكة سخرية بدت من الرائد وقال بتهكم:

- كانوا أصلاً يخافون عليك من الأسرى وعليه منعوك من الاقتراب منهم، إذن كيف سمحوا لأنفسهم زجك بينهم هذا إذا كنت صادقًا في روايتك.

- أنا صادق معك يا سيدي.

- كيف تسول لهم أنفسهم فعل أفعال مشينة كهذه، ألا يعلمون أن ذلك ممنوع.. ممنوع، هناك في الأماكن القريبة من خط الجبهة لا يسمح بهذا لغير الأشخاص المعنيين والمُدرَبين.

- هذه أوامر العقيد الركن آمر اللواء يا سيدي الرائد.

- لعنة الله عليهم جميعًا، هم يخطئون ونحن نتورط بأخطائهم، على أية حال أنا كرجل عسكري لا أقر بكلام كهذا سواء كانت حقيقة أم خيال، صدق أو كذب، بإمكان بعض الأسرى الذين يجيدون اللغة العربية وخاصة اللهجة العراقية قول كلام كهذا وما أكثرهم، نحن لا نتعامل مع الأمور بالإدعاءات والأقاويل بل نحتاج إلى مسببات واقعية ووثائق رسمية نبرر بها أعمالنا...

ثم تابع الرائد حديثه موجهًا كلامه لمساعد آخر من مساعديه:

- ملازم أول سامي.

- نعم سيدي.

- ضع الأسير رقم ١٣ مع الأسرى، وأبقيه معهم كما جاء معهم، وعاملوه كمعاملتهم بعد إضافة اسمه إلى باقي الأسماء بالقائمة التي معك، ثم كثف اتصالاتك بمقر اللواء حتى نتعرف جيدًا ونتأكد تمامًا من قصة هذا الأسير، لا أريد أخطاء ولا متاعب مع القيادة، بدأ وجع الرأس وآلامه وبدأت أشعر بالصداع، أهم يعالجون الخطأ البسيط بالخطأ الفادح، حتى يمنع الجندي من الاقتراب والتحدث إلى

الأسرى يزج به معهم...هه... من يصدق، من يصدق كلام كهذا، إنها هرطقة وهذيان مجانين.

– نعم سيدي... تأكد سيدي سأفعل وأنفذ ما أمرتني به بدقة وبما يرضيك.

– إنه مسؤولية كبيرة لا يجب تحمل نتائجها الوخيمة وحدنا، بل هم من يتحمل نتائج أخطائهم.

– نعم سيدي يجب عليهم تحمل نتائج أخطائهم وحدهم... لذا اقترح يا سيدي أن يعود الملازم الذي جاء بهم بواحدة من سيارات الجيب إلى مقر اللواء ويأتينا بالحل المناسب.

– نعم... حسنًا، اقتراح معقول ومقبول... تعال أنت أيها الملازم.

– نعم سيدي.

– ارجع إلى مقر اللواء مرة أخرى وخذ معك نسخة من أسماء الأسرى وعددهم، واشرح الأمر لهم جيدًا كما رأيت بعينيك وسمعت بأذنك وعُد إلينا بالخبر اليقين... هل فهمت؟

- نعم سيدي مفهوم وسأنفذ حالاً، لكن الطرق طويلة وصعبة وأحتاج يوم للذهاب وآخر للإياب وثالث بينهما لاستطلاع الأمر، هذا يعني نحن بحاجة لثلاثة أيام على الأقل.
- أعرف كل هذا، ومع ذلك عليك بالتنفيذ.

عاد الرائد إلى غرفته وهو عصبي حاد المزاج متعب، صاح بأعلى صوته رافعًا كلتا يديه إلى الأعلى كأنه يريد أن يطول بهما السماء:

- يا ناس... يا عالم... أريد من يعرفني بقصة هذا الأسير رقم ١٣ ويجد لي حلاً لها أكاد أُجَن.

ثم أنزل يديه مارًا بيده اليمنى على رأسه منتزعًا عنه البيريه، ساد الهرج والمرج الموقع بأجمعه، تقدم الملازم الأول مساعد الآمر والملازم قائد الرتل نحو سلمان واستفسروا منه:

المساعد:

- من هو الذي وضعك مع الأسرى؟
- لقد أجبت السيد الرائد توًا على هذا السؤال، إنه آمر اللواء.
- ومن له علم بوضعك هذا غيره؟

- كلهم، آمر اللواء، مقدم اللواء الذي حل بديلاً عنه وهو الذي رفض تصحيح وضعي، وأصر على بقائي مع الأسرى على الرغم من تدخل آمر السرية ومساعده وضابط الخفر عريف محسن سليم.

- إذن سنتصل بمقر اللواء ونتقصي الأمر، حتى ذلك الحين، ادخلوا أنتم الثلاثة عشر جميعكم هذه الغرفة مؤقتًا حتى نحصل على المعلومات الكافية عنكم.

تقدم عسكري برتبة عريف وفتح باب الغرفة وأدخلهم إليها وأخبرهم باختصار عما يخص تفاصيل حياتهم اليومية.

أضحت عندنا الآن صورتان واضحتان تمامًا؛ الصورة الأولى داخل غرفة الأسرى، حيث جلس كل في مكانه ناشدًا استراحة ليس لها سوى ليل بهيم حالك الظلمة... الله وحده يعرف متى تشرق عليهم وعلى مئات الألوف من الأسرى غيرهم على جانبي الحدود الملتهبة شمس يوم جديد، يوم يتنسمون عطر الحرية وأريجها فواحًا زكيًا عطرًا.

داخل الغرفة وبمرور الوقت استمر التعارف وازداد التقارب بين سلمان وباقي الأسرى، من خلال الأحاديث العامة والخاصة

المتبادلة بينهم كأفراد أو جماعة، رغم جدية الأمر وحراجة الموقف، إنه يجد نفسه الآن محاطًا بأصدقاءه الجدد وأهم ما في الموضوع تشخيص الدكتور فرهاد كريمي بصفته طبيب عيون وشرح حالة سلمان المرضية، وهل هناك من علاج شافٍ في مكان ما من هذا العالم الواسع، وكم تمنى الدكتور فرهاد لو أنه يمتلك العدة والأجهزة الطبية مع المكان المناسب... مستشفى أو عيادة، لتمكن من إجراء الفحوص الطبية بدقة أكثر، وكل واحد منهما اعتبر هذا اللقاء وهذا التعارف بينهما مكسب معنوي له، معتز بالطرف الآخر.

والحق يقال كأن سلمان أسعد الجميع وهو ينعم براحة وسعادة لا يعكر صفوهما إلا التفكير بالنهاية المتوقعة، كأسير بصفة مؤقتة لن تدوم طويلاً، في جده كان يسألهم كثيرًا عن أحوالهم وظروف معيشتهم في وطنهم إيران، وفي الحياة المدنية قبل التحاقهم بالجيش واشتراكهم في هذه الحرب المدمرة، وعن عوائلهم ومن هو المتزوج فيهم وكم عنده من العيال، وغير المتزوج وعن تحصيلهم الدراسي وهوايات يمارسونها وحرف يحترفونها وعن كل شيء، ويحدثهم عن نفسه، عمره، عائلته، وعمله في معمل النجارة كمهنة هو خبير فيها، تحصيله العلمي، هواياته، وهكذا

مرت أربعة أيام أخرى حتى أثمرت نتائج الاتصالات وعاد الملازم من مقر اللواء بالخبر اليقين، وبذلك بلغ المجموع خمسة أيام بالإضافة إلى اليوم الأول في الخيمة عند مقر اللواء.

تلك كانت الصورة الأولى...

أما الصورة التي تجري وقائعها داخل إدارة التسفيرات المشبعة بالفوضى والارتباك لأربعة أيام متالية، رغم الاتصالات المستمرة بمقر اللواء، وبإلحاح لمعرفة الوضع الحقيقي للأسير رقم١٣.

وفي صباح اليوم السادس وصل العريف المسؤول عنهم مناديًا فيهم صائحًا وفي عجلة من أمره، كأنه يحمل البشرى السارة عن الخبر المنتظر:

– من هو الجندي غير المسلح احتياط سلمان داود سالم؟

قالها بلهفة المترقب وهو ينهض من مكانه واقفًا:

– أنا عريفي.

– تعال معي إلى قلم الوحدة، مطلوب هناك.

وقع حديث العريف في نفسه موقع الغرابة والعجب وهتف متسائلاً:

– ماذا تقول؟ إلى أين؟

- إلى قلم الوحدة، مطلوب هناك، هل أعيدها مرة ثالثة حتى تفهمها؟
- وماذا يريدون مني؟ أخبرني ما الأمر؟
- لست أدري... تعال وستعرف ماذا يريدون منك.

التفت إلى باقي رفاقه وكأنه علم بالأمر قائلاً:

- لقد حان الآن موعد رحيلي، لأفارقكم... أعتقد من يدري ربما إلى الأبد.

فقال له حنون متسائلاً عن باقي الأسرى:

- هل نستنتج من هذا أنك ستغادرنا ولن تعود معنا هنا مرة أخرى؟
- لست أدري يا رفاقي، ربما ولكني أعلم وأنتم عليكم أن تعلموا أيضًا أني لا بد مفارقكم يومًا، وأن بقائي معكم لن يدوم طويلاً.

ثم أضاف متابعًا حديثه وقد سمعت منه حسرة واضحة...

- بقيت معكم ستة أيام متتالية بنهاراتها ولياليها، نتيجة خطأ بسيط وإهمال غير مقصود، المسألة أصلاً لا تستحق حتى ثلاثة دقائق ولكني إن غادرتكم فسأغادركم بجسدي فقط أما روحي فستبقى معكم، سأحمل ذكرياتكم وأسعى جادًا في

متابعة أخباركم حتى آخر يوم في عمري، حكايتي معكم سأرويها لكل الناس لتعاد على أسماعهم حكايات سمر، للطيور لتغردها ألحانًا، للأشجار لتحملها على الأغصان أوراقًا وثمار، للغيوم السابحة في كبد السماء لتعيدها مطرًا، ذكرياتكم وأيامكم الغالية الرائعة أحملها في عقلي وذهني الذي ما ضاق ولن يضيق بها، وأحفظ صوركم الجميلة كحقيقة وليس خيال مجرد في ضميري الذي سيسعها ولن يضيق بها أبدًا.

فقاطعه العريف مناديًا وقد نفذ صبره:

- هيا يا ابني، لقد تأخرنا كثيرًا، كفاك هذرًا.

استأذن سلمان من رفاقه مؤكدًا لهم أنه سيعود:

- سأذهب مع العريف لأعرف ما الحكاية وسأعود بعد أن استطلع الأمر.

غادر العريف المكان وخرج سلمان يمشي خلفه حتى تثاقلت قدماه وتباطأت خطواته وقصرت، فبدا في وضعه أقرب إلى الواقف منه إلى الماشي، يلتفت مرة إلى العنبر حيث ترك رفاقه، وأخرى إلى غرفة القلم حيث ينتظره هناك من يحمل الخبر اليقين.

رق له قلب العريف وقال له بهدوء كالمعتذر:

- هيا تحرك يا ابني، لماذا تباطأت؟.

وصل سلمان مع العريف إلى قلم الوحدة حيث أخبروه هناك أنهم علموا بحقيقة أمره من مقر اللواء، وعليه تقرر إطلاق سراحه وإعادته إلى وحدته العسكرية حيث سيتكفلون بأمره هناك، منحوه ورقة صغيرة وضعوها بيده تسمى بالجيش العراقي ورقة عدم التعرض، وأمروه بالعودة إلى مقر وحدته، وخلال ثلاثة أيام فقط اعتبارًا من صباح هذا اليوم.

وقف سلمان ينظر إلى الورقة ساهمًا وهو يتحدث مع نفسه:

- هذه نتيجة طبيعية، وهل سأبقى أسيرًا داخل وطني إلى الأبد؛ لابد لي من أن أخرج وأعود إلى حيث كنت وأواصل حياتي اليومية كالعادة.

ثم التفت إلى العريف راجيًا له ومتوسلاً، رفض بالمرة الأولى لكنه وافق في الثانية:

- أريد أن أرجع إلى الغرفة لأجمع أغراضي وأشيائي الخاصة ولأودع أصدقائي وأسلم عليهم.

فرد العريف معبرًا عن سخطه واستياءه هذه المرة متخليًا عن هدوءه ورقة قلبه في الحديث.

- أصدقائك؟ كيف؟ كيف ومتى أصبحوا أصدقاءك؟ منذ متى يكون لجندي عراقي أصدقاء من الأسرى الإيرانيين الأعداء.

فرد عليه متحديًا في رأيه جاعلاً منه حقيقة لا وهم وخيال:

- حصل فعلاً، معي أنا، ألا ترى وتسمع فلا تعجب، إنهم أصدقائي وأنا صديقهم.

اضطر العريف للرضوخ والموافقة أخيرًا، لم يتمكن من الصمود طويلاً بوجه إرادة سلمان القوية وضغوطه حين قال:

- اسمع ممنوع، لا يمكن العودة إلى العنبر مرة أخرى، ولكني سأستجيب لطلبك بدافع إنساني، ولأني لم اعتد رد طلب لأحد ما زلت قادرًا على تلبيته، ولكن أرجوك ألا تتأخر كثيرًا، أسرع... ولا تدعني أندم لأني استجبت إلى رغباتك.

- اطمئن يا عريفي الطبيب سوف لن أخذلك.

ما أن فتح العريف باب العنبر ودخلها حتى بدأت الدموع تنساب رخيصة، ولم تعد تسمع معها غير أصوات القبل وهمهمة

الوداع، تطير عواطفهم حبًا، وأرواحهم متلهفة تنشد الحرية وترجو الخلاص.

تركهم خلفه وهو يتمنى لو أخرجهم معه أو استمر هو بالإقامة معهم، ذلك أفضل عنده من الحرية المزيفة في عراق يحكمه الطغاة بالحديد والدم والنار في الداخل، والموت والفناء على الحدود الشرقية، حيث الحرب ما زالت قائمة على أشدها ولم تضع أوزارها ولسان حاله يقول:

- هل سأراهم مرة أخرى؟ هل سألتقي بهم في مستقبل قريب أو بعيد؟ جميعهم أو بعض منهم أو أحدهم وأعرف أخبارهم وما آل إليه مصيرهم!.

• • •

خارج أسوار المجمع.

خطوة إلى الأمام... والتفاتة إلى الخلف.

تتابعت الخطوات.. لكن الالتفاتة واحدة.

لا يعرف تمامًا إلى أين تقوده خطواته الوقحة، لكنه يعلم جيدًا إلى أين ترتد نظراته الخجولة.

لا أحد يعرف بماذا يفكر في هذه اللحظات حتى هو نفسه لا يستطيع لململة شتات أفكاره المبعثرة الحائرة بين ما ينتظره في مسيره إلى الأمام ونظراته إلى ما تركه خلفه، حتى ارتطم بجسم ثقيل متحرك اعترض طريقه، وبين لجة أفكاره المنظارية وزحمة أفكاره المتقاطعة، انتزع لسانه كلمات اعتذار مرتبكة:

– آآآآسف... آآسف يا أخ... أر...أر...أرجو المعذرة.

التقطت عيناه صورة حمار تركه صاحبه مربوط على جانب الطريق، يهز رأسه وقد اخترقت أذناه رنين أجراسه، ابتسم قليلاً وقال مع نفسه:

– لا يهم، يجب الاعتذار حتى من الحمار..

ثم بصوت مرتفع:

– آسف أيها الحمار المسكين أرجو المعذرة لم أنتبه إلى الطريق.

تابع خطوات ثابتة متزنة أسرع قليلاً مما كانت ليرتطم مرة أخرى بجسم ثقيل... أثقل من ذلك الذي كان فصاح بصوت مرتفع قليلاً:

– أوووووه... حمار... حمار أيضًا كل مرة ارتطم بحمار، ما أكثر الحمير في هذه المناطق، أرجو المعذرة أيها الحمار المسكين.

- أنا؟! أنا حمار أيها الغبي، بل أنت الحمار ابن الحمار وليس أنا، كان عليك الانتباه إلى طريقك.

مع سماعه للصوت العالي والقوي برنين كرنين الأجراس، التقطت عيناه هذه المرة صورة مغايرة تمامًا عن الصورة الملتقطة في المرة الأولى...

إنها صورة رجل ضخم الجثة، عريض المنكبين، ببطن ممتلئ مكسورة وبعجيزة خلفية منتفخة لا تقل حجمًا، ورأس كث الشعر أشعث وعينان تكادان تخرجان عن مقلتيهما، زاد الغضب الطارئ في اتساعهما وبروزهما إلى الخارج أكثر وأكثر، يتوسط وجهه ذو الملامح الغاضبة شارب كث، اختلط فيه الشعر الأبيض في كثرة مع قلة في سواده.. يا لها من مفاجأة كبرى ضاعفت ارتباكه وزادته حياءً وخجلاً.

- آسف... آسف يا أخي... أرجو المعذرة، والله العظيم.....

تركه الرجل في هذيانه وذهب في مسيره يتم طريقه تشيعه نظرات سلمان الخجولة.

الجزء الثاني

منتصر

قد يدفعنا ضعفنا للاستعانة بمن هم أضعف منا ،

أو تغرينا قوتنا فنذهب لمقارعة من هم أقوى منا ،

وبذلك... نقع بذات الخطأ مرتين.

حاسب الخميسي

توقفت الحرب العراقية الإيرانية ولم تنتهِ، لأن الحروب مازالت مستمرة منذ بدأت قبل ستة الآف سنة، وستستمر ما شاء لها الله أن تستمر...

توقفت بعد ثماني سنوات متصلة متتالية، تعانقت أيامها وتآزرت ساعاتها، حتى لم يعد يوجد بين طيات أزمنتها فسحة يتنفس من خلالها نسائم الرجاء، أو خرم إبرة ينفذ منه نور الأمل.

حرب أهلكت الزرع والضرع، وعانت منها الطبقتان الوسطى والفقيرة الأقل منها اقتصاديًا الأكبر منها عددًا لذا فليس من بوادر العجب أو الغرابة أن تعم مظاهر البهجة والفرح والسرور البيت العراقي، وتخرج منه أمواج بشرية فياضة تغرق الشارع ابتهاجًا بتوقفها، ولبست بغداد وألبست معها العراق كله حلتها الوردية الجديدة.

خرج الشعب محتفلاً... نساءً ورجالاً، صغارًا وكبارًا، غصت بهم الشوارع والطرقات يقيمون الأفراح والمسرات بشكل ليس له مثيل، حتى في الطرف الثاني للحرب... إيران!

• • •

تنَّحت الشمس عن كبد السماء كثيرًا لتودع فترة الظهيرة، وتستقبل مساء يوم صيفي قائظ شديد الحرارة، يوم بدا متميز في كل شيء حتى في تاريخه، إنه ١٩٨٨/٨/٨ هرع سلمان يحث الخطى مسرعًا إلى بيته، يطرق الباب بيد والجرس الكهربائي بالأخرى، حتى اقتحمه أخيرًا ودخله دخول الفاتحين، صاح بصوت مرتفع وبملامح وجهه تُبشر بأنباء سارة:

- بابا.. بابا... ماما... سلمى... تعالوا هنا جميعكم عندي لكم أخبار سارة.

قاطعه الأب بلهجة لا تخلو من الغضب:

- ماذا دهاك يا ولدي لقد أفزعتنا؟

ردت الأم مساندة ومؤيدة:

- تقول أخبار سارة، كفاك ضجيجًا وتكلم قل ما عندك بسرعة..

- إنها البشرى... وأية بشرى إنها الكبرى وبشرى البشائر.

هللت سلمى مبتسمة:

- بشرى البشائر... هيا قل ما عندك؟!

- عندي خبر مهم وعاجل، مهم جدًا وعاجل جدًا، لقد توقفت الحرب!

استمر معبرًا عن فرحته، يدور حولهم يحتضنهم ويقبلهم واحد بعد الآخر:

- توقفت الحرب يا أبي العزيز... توقفت الحرب يا أمي الطيبة، توقفت الحرب يا سلمى الحبيبة.

واجهته نظرات الدهشة والاستغراب، بين مصدق وغير مقتنع، هتف الجميع بصوت واحد:

- توقفت الحرب؟!

- نعم... نعم، لقد استمعت توًا إلى بيان البيانات، قال المذيع في التلفاز إنه البيان العسكري الأخير عن الحرب ألم تسمعوه؟ شغل جهاز التلفاز يا أبي وستسمع بنفسك وتصدق.

- توقفت الحرب؟! بشرك الله خيرًا يا ولدي..

- وأخيرًا بعد ثمان سنوات، الآن فقط شعروا بالتعب والكلل والملل؟!

دوى صوت التلفاز يصدح بالأغاني الشعبية والأناشيد الوطنية، يقطعها بين الحين والآخر صوت المذيع الجهري معلقًا على مجريات الأحداث بما طاب واستساغ من كلمات وعبارات منتقاة بدقة متناهية، وإتقان يتلائم مع الظرف القائم الجديد.

سلمى انشرح قلبها وعبَّرت عن فرحتها قائلة وهي ترفع صوت التلفاز أكثر وأكثر، كأنها تطير في أرجاء الدنيا محلقة في سمائها على أجنحة موجاته:

- نعم.. نعم، صحيح.. اسمعوا يا الله، يا رحمن يا رحيم يا الله!

انضمت لها الأم:

- الحمد لله الحي العظيم... الحمد والشكر لك يا رب، صحيح توقفت الحرب... لا أصدق.

أيّد الأب:

- لم نكن نتوقع توقفها هكذا وبهذه السرعة، حتى أنني توقعت لها أن تطول ٤٠ عام كحرب البسوس.

وقفت الأم في وجهه متخصرة كأنها متحفزة للرد:

- بسرعة، تقول بسرعة، كيف وهي مستمرة منذ ثماني سنوات؟

ارتبك الرجل في مواجهة سيل الاتهامات ولم يدخر جهدًا للدفاع عن نفسه:

- ماذا دهاك، كل ما أقصده أنها توقفت هكذا بسرعة أو فجأة، لقد كان القتال محتدمًا والمعارك شرسة وليس في الأفق ما يشير إلى توقفها حتى ساعة متأخرة من ليلة أمس وصباح

اليوم... ربما، أما مسألة حرب البسوس فهكذا كانت تبدو ملامح الأمور، فلا تعتبي على جنابي المتواضع كأن الأمر في يدي وأنا الآمر الناهي.

رن جرس الهاتف وأسرع سلمان للرد عليه وحين انتهى سألته أمه:

– أراك سعيد مبتسم، من كان يحدثك على الهاتف؟

– إنه صديقي رافد، اتصل يخبرني بنزول الناس إلى الشارع ويدعونا إلى النزول معهم ومشاركتهم أفراحهم ومسراتهم، هيا.. هيا استعدوا جميعكم للخروج، لقد بدأت أسمع صخب الناس وضجيج هتافاتهم وأصوات أبواق ومزامير السيارات قادمة بقوة من جهة شارع الجمهورية في طريقها إلى ساحة التحرير، ألا تسمعون، هيا اسرعوا.

دوت أصوات انفجارات تبدو قادمة من بعيد أخرجت الأم من غرفتها خائفة:

– يا لطيف... يا لطيف هل عادت الحرب من جديد؟!

ضحك منها الجميع وطمأنوها على أنها فرقعة الألعاب النارية.

فجأة انقطع التيار الكهربائي فقال الوالد معبرًا عن تذمره:

- أووووووه... لقد انقطع التيار الكهربائي، الحمد لله زارنا ساعة واحدة، تمكنت خلالها من الاستحمام وحلاقة ذقني وتغيير ملابسي.

• • •

وهكذا خرج سلمان وعائلته إلى الشارع لمشاركة الشعب الفرحة الكبيرة بزوال ظلمة الحرب وشروق شمس جديدة للسلام، أضاء نورها الدنيا ومنحها رونقًا وبهاءًا ولو بعض حين.

في الطريق سألته زوجته باهتمام:

- متى سيتم تسريحك من الجيش؟
- لا أدري!
- كيف... كيف لا تدري؟ ألم تتوقف الحرب؟ لماذا يبقى الرجال بعيدًا عن أعمالهم وعيالهم ما دام الجيش لم يعد بحاجة لهم.
- تتحدثين وتسألينني كأنني الآمر الناهي في هذا البلد أو القائد العام للقوات المسلحة، هل تعتقدين أني أنا من يسرح الجيش؟

- لا... لا... لا ليس هذا ما أعني، لقد خانني التعبير عما أفكر فيه، لكن يجب تسريح الفائض من الجيش لتنتهي مظاهر الحرب ويعود المجتمع إلى حالته الطبيعية.

ضحك سلمان وقال مازحًا:

- حسنًا... اقتراح وجيه، سأرفعه إلى القيادة العامة للقوات المسلحة، تأكدي أنهم سيأخذون به مرحبين بأفكارك، وسيستقبلك صدام حسين ليمنحك كمٌ من أنواط الشجاعة، وربما يعينك وزيرة للتخطيط!

ردت عليه بغضب واضح:

- أتسخر مني وتهزأ بي... شكرًا، لن أتحدث معك بعد الآن أنا غاضبة منك.

- لا يا حبيبتي لا أسخر منك بل أحب أن أمزح معك أليس هذا حق الحبيب على الحبيب؟ على هذا النحو وما دام مزاحي يزعجك أنا من لن يتحدث معك بعد الآن، وغاضب منك.

خطوتان والثالثة التقت نظرات الحب المتجدد وتبادل الحبيبان الابتسامة الرائعة ليرتفع صوتها وتمسي ضحكة مسموعة.

بادر سلمان وبرقة متناهية إلى طبع قبلة زكية على جبين زوجته، وضمها إلى صدره قائلاً:

- أنا من يجب عليه أن يرضيك أولاً.

- أنا أيضًا يجب أن أرضيك... تعرف يا سلمان،كأني لم أرك وأتحدث إليك منذ التحاقك بالخدمة العسكرية، لذا أنا تواقة جدًا ومتلهفة كثيرًا لمسيرة كهذه جعلتني في قمة السعادة.

- لو تعلمين يا حبيبتي الغالية ونور عيني كم كنا نعاني أثناء الخدمة العسكرية وهول وعظمة المصائب التي مرت وتمر بنا كل يوم، وكم تركت وتترك خلفها ذكريات أليمة؛ لحمدت الله وشكرته ألف مرة لأنك خُلقتِ أنثى ولستِ ذكر، امرأة ولست رجل، قريبًا سيأتي ذلك اليوم الذي سنقضي لياليه الشتوية الطويلة وأنا أقص عليك حكايات عما مر بي وبغيري من مواقف وأحداث ومصاعب، تهون معها حكايات ألف ليلة وليلة.

قالها وذكرياته الصادقة عن أصدقائه الأسرى الاثني عشر لم تبارح مخيلته، وتأبى مغادرة ذاكرته، وفي قرارة نفسه أمنية أن يسمع ولو خبر موجز عنهم، ويتساءل هل أراهم يومًا ما كلهم أو بعضهم أو حتى واحد منهم؟

- كان الملك العظيم شهريار يستمع لحكايات الساحرة الجميلة شهرزاد، سيحدث العكس معنا، حيث أنت من سيحكي يا شهريار عمري وأنا من ستستمع...أليس كذلك؟

- بالتأكيد يا شهرزاد عمري، يا أجمل وأغلى شهرزاد في الدنيا.

ضحك الاثنان كأن لم يضحكا من قبل، كل هذا وجمهرة الناس من حولهم في غفلة عنهم، منشغلين بأفراحهم واحتفالاتهم غير مبالين بما يدور بين شهريار وشهرزاد أواخر القرن العشرين.

لاحظ والدا سلمان تخلفهما عنهما بمسافة ليست قليلة، فعلقت الأم قائلة:

- انظر يا داود إلى ابنك وكنتك قد تثاقلت أقدامهم وتباطأت خطواتهم، وهم الآن على مبعدة عنا تاركين ولدهم رامي برفقتنا.

- هههههه دعيهم وشأنهم يا قسمة، ما وجدت سلمان مستبشرًا سعيدًا كما هو الساعة، لقد تركت الحرب آثار صحية سيئة للغاية على الشباب، وزادت من أزماتهم النفسية، دعيهم على هواهم يا قسمة دعيهم.

ثم تابع حديثه:

– أقول... أم سلمان... هل أنا ضيفك هذه الليلة؟

– ممـــــ.... ممـــــ... ماذا؟

– ضيف عندك يا حبيبتي الغالية، مرت مدة طويلة ونحن....

– اسكت، اسكت نحن كبرنا على هذا يا رجل.

– لا كبرنا ولا هم يحزنون ومازلنا شباب، أجد نفسي هذا المساء شابًا في العشرين وأجدك في الخامسة عشر من عمرك.

– ها... ها... ماذا تقول؟!

– نعم... نعم... أنا الليلة ضيفك... أنا الليلة عريس من جديد.

وهكذا مضت عشر ليالٍ على العراقيين عبروا فيها أفضل تعبير وبإبداع لا مثيل له عن عشقهم للسلام وما بعده، ونبذهم للحرب وما يرافقها بما لها وعليها.

لاح بريق أمل خفقت له القلوب؛ فهل يستمر طويلاً ويدوم أم هذه خطفة برق ضاعت في ليلة دهماء ملبدة سماءها بغيوم داكنة سوداء؟ وما أتعس نفوس يلفها الظلام بعد ومضة نور خاطفة...

في أقل من سنتين وفي فرحة لم تدم طويلاً أفاق الشعب من سكرة السعادة على أخبار دخول الجيش واجتياحه الكويت، وذلك في ١٩٩٠/٨/٢في مؤامرة مرسومة، لا ولن تبقى خيوطها المتشابكة

في طي الكتمان يلفها الغموض طويلاً، وستكتشف قريبًا، مؤامرة الغاية منها خلق مشاكل جديدة للعراق مع المجتمع الدولي، تُفضي لتخلي الأشقاء في الجامعة العربية عنه، والمؤتمر الإسلامي والدول الصديقة على حد سواء، وهذا هو المطلوب.. عزل العراق عن محيطه العربي والإسلامي والدولي، حتى يمكن توقيع أقسى العقوبات الدولية السياسية، وفرض الحصار الاقتصادي تمهيدًا لإسقاطه، من خلال زجه في حرب خاسرة جديدة بحجة استرجاع الكويت.

وبدأت ملامح الحرب... بل الحروب الجديدة تعلن عن نفسها بقوة وجسارة، لم لا مادامت الحرب الإيرانية لم تأتِ بالنتائج المرجوة منها، ولاحتلال منطقة الخليج كليًا، وإعادة فرض الهيمنة الاستعمارية عليها من جديد، ثم احتلال العراق ذاته بعد إنهاكه بالحصار الاقتصادي، ووضعه تحت البند السابع من بنود الأمم المتحدة سنين طويلة..

وهذه أسوأ قرارات وبنود المنظمة الدولية، وحسب خطة مبرمجة ومرسومة متفق عليها وتم تنفيذها فعليًا تركه أثناء وبعد الاحتلال نهبًا لحفنة من مواليهم، عفنة طباعهم، من أرذل الناس في أخلاقهم، خونة؛ للأجنبي ولائهم، هم عصبة من أشقياء الشوارع

ولصوص الحانات ونابشي القمامة، هؤلاء هم أعضاء مجلس الحكم سيء الصيت والسمعة، ووزرائهم ومن زاملهم وحكومات جاءت بعدهم ومن أيدهم وناصرهم وآزرهم، والذين أعدوا إعداد مخابراتي خاص تحت تسميات حزبية دينية وعرقية؛ لنهب وسرقة العراق بالجملة، وزرع بذور الفساد على أرضه، والتفرقة الطائفية في شعبه، وتحويله إلى دولة فاشلة بامتياز، بل وأكثر دول العالم فسادًا وفشلاً، في حال أسوأ مرات ومرات لا تحصى، وليس لها عد ولا عدد، من حال نعيشها زمن الدكتاتور الطاغية المستبد صدام حسين، مع أنه في حينه يعد صاحب أعتى وأقسى نظام فردي شمولي متعسف ظالم، ليس له منافس ولا مثيل، ليس في تاريخ العراق الطويل الموغل بالقدم وحسب، إنما في العالم والبشرية أجمع...

فكيف هو حال العراق وشعبه بصفات وأخلاق من جاء بعده، هذه هي أكثر الديمقراطيات حداثة، جاءت على متن دبابة أمريكية، والمؤسف حقًا أن جلهم وجد دعمًا معنويًا جمًا وإعلاميًا وافرًا من لدن الحوزة الشريفة والوقفين الشيعي والسني!

ومع بداية كهذه بدأت نذر أيام قاسية صعبة، أيام تراكمت تباعًا لتستمر سنوات طويلة مظلمة، نهاراها دهماء، لياليها لتغير عجلة

الزمن دورانها وتعود متراجعة إلى الوراء قرنًا كاملاً، ونحن في العقد الأخير من القرن العشرين، وقرنًا آخر ونحن في الربع الأول من القرن الواحد والعشرين... مازال ليل العراق طويل ومازالت شمس العراق غائبة لم تشرق بعد!

• • •

في ظل الظروف الجديدة؛ الحصار الاقتصادي وتهديدات الحرب والنشاطات القائمة استعدادًا لها، ليس من متضرر غير الطبقة الفقيرة من ذوي الدخل المحدود وهم السواد الأعظم من الشعب التي تضم العمال، الفلاحين، الكسبة، صغار التجار، الحرفيين، الموظفين.

سلمان وعائلته واحد منهم، ونموذج صادق في تمثيلهم...

– الويل...الويل، ما دامت فرحتنا طويلاً، ما أن توقفت حربنا مع إيران حتى خيمت علينا نذر حرب جديدة.

هكذا تأوهت الأم في حسرة وألم، فشاركها الأب الحديث مؤيد مناصر:

- ما أن تتوقف حرب حتى نستعد لأخرى، لعلهم وجدوا بالعراق والعراقيين بعض من بقية يريدون القضاء عليها.

- هل نحن بحاجة للمزيد من الأيتام والأرامل، ومازات دماء الشباب لم تجف بعد، ورمال البراري تأكل بقايا جثثهم، حتى الأسرى مازال أكثرهم في الأسر ولم يرجعوا إلى ديارهم...

ما أن سمع سلمان بكلمة الأسرى حتى فز مرعوبًا من مكانه واقفًا قاطعًا حديث أمه:

- ها... ها تقولين... أسرى؟

لقد تذكر أصدقاءه الاثني عشر أسير، فطن الأب فهرع يطمئنه:

- اطمئن يا ولدي الطيب اطمئن، لا تخف أو تحزن سيكون الله في عوننا وعونهم، وأعدك أنك ستلتقي بهم أو بواحد منهم على الأقل وستسرك أخبارهم، لا أدري كيف ولكني متفائل ولا أعلم سر هذا التفاؤل، لعلي تذكرت المثل القائل الحي يشوف الحي!

- إذا بقيت لنا في الدنيا حياة والحرب الشرسة قادمة لا محالة.

غضب الأب على ولده، قال وهو يضرب الكف بالكف:

- لا حول ولا قوه إلا بالله، إنا لله وإنا إليه راجعون... تفاءل كثيرًا ولا تتشائم... لا تقل هذا واتقي الله يا ولدي.

لم يقتنع، نهض يحدث أمه بصوت مرتفع قليلاً:

- أنا خارج يا أمي في طريقي إلى سيد عامر تاجر الخشب لأتمم مشوار نهار الأمس بأكمله.

- انتظر.. دعني أرافقك.

- شكرًا لك يا والدي سيرافقني ابن عمي ماهر.

خرج سلمان واستمرت العائلة تواصل حوارها.

- آه...آه يا أم سلمان، آه لو تعلمين كم ارتفعت الأسعار منذ فرض الحصار قبل شهرين، نحن في سباق يومي ضد التضخم وارتفاع الأسعار، والعملات الصعبة مقابل سعر صرف الدينار كمن يسبح ضد التيار، نحن أمام أسعار جديدة صباح كل يوم، بذات الوقت انخفض الطلب على منتجاتنا وها هي مكدسة في المخازن في أسوأ حالات الكساد.

- ليس نحن وحدنا من يعاني بل الجميع، إنهم يدخرون أموالهم لأيام بل لسنين عجاف قادمة، كيف لهم البيع والشراء وهم في خوف دائم من حرب قد تستخدم بها أسلحة الدمار

الشامل، ليست إيران هذه المرة ولا الكويت بل هذا تحالف دولي من ثلاثين دولة بقيادة الولايات المتحدة الأمريكية، وأقوى حلفائها من دول عظمى وكبرى تحت ظل هذا الحصار الشيء الجديد في حياهم.

- نعم يا عم، نحن النساء وخاصة ربات البيوت خير من يلمس التغيرات المفاجئة والسريعة على اختفاء البضائع وتقلبات الأسعار نبدأ بالضروريات وننتهي بالكماليات.

هكذا استمر الحوار ساخنًا في العائلة حتى رجع سلمان مبكرًا على غير موعده، ساهم الذهن شارد النظرات يحمل همًا ثقيلاً مكتفيًا بأداء تحية بلهجة نمّت عن شديد تأثره:

- السلام عليكم...
- وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته، تبدو متعبًا كالمغلوب على أمره؟ لعلك جئت لأمر مهم.
- نعم يا والدي ، جئت لأحدثك بأمر مهم.
- اللهم اجعله خيرًا... هات ما عندك.
- قضيت الساعات الطويلة؛ بل قل نهار الأمس بأكمله وصباح اليوم أتجول على قدمي، سائحًا بين مكاتب تجار الأخشاب

بلا فائدة، لقد أغلق الجميع أبواب مخازنهم وكلمة لا يوجد واحدة موحدة، تجول وتصول على أطراف ألسنتهم لعلهم اتفقوا عليها، هم وحدهم أصحاب السوق السوداء أصحاب الكلمة وأسياد الموقف ولهم الجولة والصولة الآن، لديهم كل ما تريد وتحتاج... لكن بضاعتهم قديمة وشبه تالفة كانت كاسدة لا مشتري لها، وهذه فرصتهم الذهبية لتصريفها والتخلص منها وبأسعار مرتفعة جدًا، أسعار مضاعفة وخيالية!

- وهل حصلت على ما تريده سواء من السوق البيضاء أو السوداء.

- أخبرتك يا والدي، المعروض ليس أكثر من نماذج قليلة لمخزون كبير لأنواع قديمة ورديئة وبأسعار خيالية.

- وماذا تقترح علينا يا ولدي؟

- لننتظر ونرى على أي مرسى سترسي الأمور، نحتاج إلى بعض الوقت، أرجوه قصيرًا يا أبي.

- ومعه بعض الصبر أرجوه قليلاً يا ولدي.

- هههه وهو كذلك، من هذا وذاك يا والدي العزيز ههههههه لقد أضحكتني.

قالت سلمى تبدي رأيها:

- وما حاجتكم لأخشاب ومواد أولية مادمتم تؤكدون السوق واقفة والمصالح معطلة وبضاعتكم مكدسة في المخازن لا تجد من يشتريها... هل تريدون إضافة المزيد لها؟

- نعم صحيح هي هكذا الأمور، لكن حاجتنا إلى الأخشاب والمواد الأولية ضرورية لإنجاز الأعمال نصف المنجزة، تلك التي شرعنا بتنفيذها، لا نستطيع تركها على حالتها كما هي، ثم كيف نتصرف مع العمال والعاملين معنا، هل نصرف لهم المرتبات الشهرية وهم متوقفون عن العمل أم نسرحهم عن أعمالهم؟ لا نريد أن نتخلى عنهم وهم في خدمتنا سنوات طويلة، ومعنا اكتسبوا الخبرة العملية اللازمة، قد لا نجدهم ولا نعثر على مثيل لهم فيما بعد إذا فرجت، هم مساكين لا ذنب لهم ونحن أيضًا، وهكذا كلنا في حيرة من أمرنا لا نعرف كيف نتصرف وكيف نحل هذه العقدة، الفكرة عندي أن نستمر بالعمل عسى الله يدركنا بفرج قريب.

الحديث عن توقعات الحرب القادمة، وما يحصل قبلها، وما يرافقها وسيأتي بعدها، وبكل ما لها وما عليها؛ ليس حديث البيت العراقي فقط إنما هو حديث الشارع، العمل، مقاعد الدراسة وحتى الحانات وبيوت الـــــــــ...

وهذا نموذج صادق لحديث في وسائط النقل العام.

الأول:

- تجمع مرعب ومخيف للجيوش والأسلحة في تحالف لأكثر من ثلاثين دولة، تجمع لا مثيل له منذ الحرب العالمية الثانية، والعجيب الغريب عدم وجود نقاط ومحاور تلتقي عندها السياسات الخارجية والاقتصادية لأغلب الدول ولا حتى فكري وعقائدي، تفرق بعضهم قطيعة وعداء مستحكم لجهة فيه أو أكثر، بل في حالة حرب أحيانًا، لهذا أطلقت عليه تسمية التحالف غير الشرعي أو اللقيط.

الثاني:

- اجتمعوا لاستعادة الكويت وطرد العراق منها.

الثالث:

- لا تحزنوا ولا تهتموا للأمر كثيرًا، لا ولن تقوم حرب جديدة.

الأول:

- كيف، ومن أين لك بعلم كهذا، هل تجمعت كل هذه الجيوش للنزهة والسياحة، وأين، في عرض الصحراء القاحلة في حقول النفط وحول آباره؟

الثالث:

- ها أنت قلتها، احتلال دول الخليج والاستيلاء على حقول النفط ومنابعه، وهذا هو المطلوب، وبهذا لم تعد صحراء قاحلة كما تدعي ولن تقوم حرب كما تعتقد، لقد اكتفوا بما وقع بين أيديهم ولن يطلبوا المزيد فاطمئن.

آخر:

- لا... لا... لن يكتفوا بهذا النصف الذي وقع بين أيديهم، كلامك ليس صحيحًا يا أخي، فأمريكا وحلفائها في الغرب بحاجة إلى النصف الآخر الموجود في أرض العراق والكويت.

غيرهم:

- للتهويل والتخويف فقط... ليتهم يستطيعون، هم يعرفون جيدًا قوة وقدرات الجيش العراقي الباسل ومدى تسليحه، إن الجيش العراقي مسلح ومنظم أكثر مما كان سابقًا، ويمتلك

اليوم قوة جوية ضاربة وصاروخية فعالة بعيدة المدى وقوة دبابات ومدرعات متمكنة وأسلحة أخرى مختلفة ومتنوعة، وثمانية سنوات من الحرب مع إيران منحت أفراده خبرة ميدانية وقتالية عظيمة، لذا أنا متأكد أنهم لن ينالوا ما جاءوا من أجله لا بالحرب ولا بدون حرب.

كان يقول هذا ومظاهر الفخر والاعتزاز بادية عليه.

لاذ سلمان بالصمت مكتفيًا بالاستماع لحديث تتنازعه الآراء، لكنه أخيرًا تمتم يحدث نفسه معلقًا على رأي الرجل الأخير:

- هه...نصّبَ نفسه خبير عسكري... لعله لا يدري أن الجيش خرج منهكًا متعبًا منهارًا، وقد خسر معنوياته وفقد كل أسلحته في الحرب مع إيران ولم يتمكن من تعويضها لحد الآن، لو يعلم جنابه أن الكثير من خيرة الذين يفتخر بهم متحديًا الأعداء باسمهم هم الآن في عداد القتلى، أو معوقين بجراح مثخنة أو مفقودين أو مازالوا في الأسر، بكل وضوح هذا يعني أن الجيش فقد الكثير من قدراته وكفاءاته، لكن من بإمكانه النطق بكلمة واحدة يقطع لسانه قبل رأسه

• • •

لم تتأخر شرارة الحرب كثيرًا فما أسرعهم في التخطيط والإعداد والتنفيذ، في ١٩٩١/١/١٧ ومض بريقها المرعب ليخشي القلوب ويشتت الأفكار، لَم لا وقد سادت البلاد فوضى شاملة بسبب انقطاع التيار الكهربائي ومن الدقائق الأولى، وسرعان ما تبعه قطع إمدادات الماء الصالح للاستعمال البشري عن البيوت والمرافق العامة، ولحقتها مشتقات النفط وغاز الطبخ، وكذلك قطع اتصالات الهاتف، وغير ذلك الكثير مما يخطر وما لا يخطر على بال، وكله قبل شروق شمس اليوم الثاني!

بالتأكيد هذا نتيجة ضرب وتخريب محطات توليد الطاقة الكهربائية المتعبة أصلاً من تعرضها لغارات الطيران الإيراني سابقًا، ومحطات ضخ وتنقية المياه، وبدالات الهاتف الأرضي ومكاتب البريد ومراكز الاتصالات السلكية واللاسلكية، ودمرت المطارات والطرق العامة والجسور، وهذه الأخيرة استمر التدمير فيها حتى اليوم الأخير للحرب، مما تسبب بتوقف الخدمات وتقطع سبل الاتصالات والتواصل بين الناس، بكل أشكالها ومسمياتها، وبقى الأفراد والجماعات كالرهائن، كل في مكانه، حيث كان في عالَمه لا يمكنه الانتقال والتواصل مع الغير من أهله وناسه واستطلاع

أخبارهم والاطمئنان عليهم مهما قربت مسافاتهم أو بعدت، وكأنهم في عوالم أخرى.

وحتى المدارس والمستشفيات ودور العبادة طالها القصف الجوي ولم تنجُ من غضبتهم، وفي العمق على طول العراق وعرضه من أقصى شماله إلى أدنى جنوبه ومن مشارف شرقه إلى أطراف غربه.

إذا كان هذا هو حال المنشآت والمواقع ذات الاستعمال المدني، وتبدأ منها وتتوقف معها الحياة المدنية فكيف هو حال مثيلاتها في معسكرات الجيش ومن هم في الحياة العسكرية؟ ما أحوجهم لهذه الحرب، وما أحوجهم إلى الإسراع في تحقيق أهداف رسمت وخطط لها منذ أربع سنوات مضت قبل وقوعها، وهذا يفسر بوضوح ويشرح بدقة سبب التوقف المفاجيء للحرب العراقية الإيرانية[1].

بدأت معاناة الناس من الساعات الأولى لبدأ الحرب، وما المحنة التي أحاقت بعائلة سلمان إلا نموذجًا حقيقيًا يحتذى به، وعلى هذا النحو نضرب الأمثلة لمحن جمة مثلها وأكبر منها أحاقت بالعراق والعراقيين.

---

[1]- التفاصيل في {البديل} الرواية الرابعة من سلسلة روايات رغبات صامتة.

كانت سلمى حامل تعد لأيام الولادة عدًا تنازليًا، ولتوفير الظروف الأفضل سافرت العائلة إلى ناحية الخالدية عند منتصف الطريق بين الفلوجة والرمادي، حيث حلوا ضيوفًا مرحبًا بهم على عائلة أوهام داود أخت سلمان التي تعيش هناك، غادروا بغداد مع من غادر من أهلها صوب القرى الريفية والنواحي البعيدة، هربًا من جحيم الحرب القادمة وويلاتها، والمتوقع استعمال أسلحة الدمار الشامل بكل أنواعها ومسمياتها فيها، يمنون النفس بظروف أفضل بكثير من تلك المتوقعة في بغداد والمدن الرئيسية الأخرى.

وعلى غير المتوقع!

خابت ظنونهم وتبددت آمالهم، فأسلحة الحرب الحديثة الأكثر تطورًا والمتمثلة بالغارات الجوية والضربات الصاروخية البعيدة المدى؛ طالت التجمعات البشرية في المدن الصغيرة والكبيرة على حد سواء.

العشرين من كانون الثاني/ يناير أي اليوم الرابع للحرب وفي أحضان أنواء جوية باردة، انخفضت درجات الحرارة فيه إلى ما دون الصفر المئوي، ممطر بغزارة، عاصف بعنف، اهتزت لشدة رياحه الشمالية المتجمدة الأبواب والشبابيك.

في ظل ظروف أمنية سيئة للغاية وأخرى جوية لا تقل سوء؛ بدأت عند الأصيل آلام الطلق تنبعث بهدوء عند سلمى، واشتدت قبل منتصف الليل لتبدو كالصراخ منبعث من خلف الأبواب والشبابيك المغلقة بحيث لا يمكن الانتظار حتى الصباح، وكان لا بد من البحث عن طبيبة ولادة أو قابلة مأذونة أو حتى ممرضة ممارِسة، وبدأت لجة البحث تفوح زوابعها في صراع مرير بمواجهة لجج زوابع الطقس والحرب معًا... بادر سلمان إلى سؤال أخته بلهفة المتعطش لسماع الجواب:

– أنتِ من أهالي الخالدية القدامى... تذكري لعلك تعرفين من تستطيع تقديم المساعدة؟

– نعم...سأذهب إلى القابلة المأذونة أم سالم، على بعد كيلو متر وربع لعلها تقبل الحضور معنا.

– أوووووه، كيف يمكنك الوصول إلى هناك ثم العودة، تحت وطأة هذا الجو الرديء والظلام الدامس؛ تعتبر المسافة بعيدة جدًا.

– لا تقلق سيرافقني ابني أحمد.

- لا داعٍ لوجودك معي يا أمي، سأذهب وحدي على الدراجة الهوائية.

- أي دراجة التي تستطيع استخدامها في ظروف كهذه والطرقات مظلمة غارقة موحلة؟

وهناك... بعد طرقات متتالية من كف أحمد المتجمدة فتح سالم الباب، بدا عليه الخوف والارتباك، فبادره أحمد وأمه بتحية طيبة فرد سالم بأحسن منها ثم تابع:

- من أحمد ووالدته الحنون، أهلاً وسهلاً بكما، ما الذي جاء بكما بعد منتصف الليل في جوٍ ثقيل كهذا؟ تفضلا بالدخول.

- شكرًا لك أخي سالم، نحن في حاجة للسيدة الوالدة، جئنا في طلبها لتساعدنا في حالة ولادة متعسرة ومستعجلة، هناك عندنا في البيت.

أردفت الأم متابعة ومؤكدة:

-نعم يا ولدي أين هي أمك نادها بسرعة أرجوك.

- أمي ليست هنا... ليست في البيت خالتي أم أحمد.

ازرق وجه أوهام كأن دورة الدم توقفت فيه وقالت بهدوء:

- ليـــــ... ليـــــ... ليست في البيت... أين إذن؟

- إنها خافرة منذ ثلاثة أيام في المستشفى العام، الجهاز الطبي كله في حالة إنذار بسبب عدد الجرحى الكبير.

فتحدث أحمد بضيق وتململ:

- وماذا بعد ذلك يا سالم... هل من بديل لأمك أو أي حل آخر؟

- لا... لا أدري، ليس من حل أمامكم غير الوصول إلى مستشفى الرمادي للولادة.

- طيب أخي سالم، نأسف للإزعاج ونرجوا المعذرة، تصبح على خير.

- أهلاً وسهلاً، تمنيت لو بإمكاني مساعدتكم، تصبحون على خير.

بعد ساعة عادت أوهام إلى بيتها خائبة يائسة متعبة منهكة، استقبلها سلمان مدمدمًا:

- ها... ها بشّري، أراك وحدك مع أحمد، أين القابلة إنها ليست معكم.

روت له ما كان، ساد صمت بشري أرجاء المكان، صمت قصير سرعان ما بددته صرخة مجلجلة مدوية عقدت الألسن، وأخرى زادت التوتر، انتفض سلمان متأثرًا:

- ماذا نفعل، ماذا نفعل الآن، هل نقف مكتوفي الأيدي نتفرج على سلمى وهي تتألم؟

فقالت أوهام بشيء من الجد:

- لا...لا، تعال معي نطرق أبواب الجيران عسى يتطوع أحدهم وينقلنا في سيارته إلى المستشفى، أو على الأقل يسلفنا سيارته لاستعمالها في المهمة.

- ونحن في الواحدة والنصف بعد منتصف الليل؟! من يعيرنا سيارته في ظرف كهذا؟

- لا تبالي يا سلمان، الجيران كلهم أولاد حلال أهل نخوة وغيرة وحمية.

خرج سلمان وأخته تطاردهما صرخات سلمى، خرجا يطرقان أبواب الجيران بحثًا عن مساعد في شخصه أو سيارته.

الأول... الثـــ.... الخامس...

طرق سلمان بابًا في المحاولة السادسة وقرر أن يكون الأخير:

- هذا سادس باب نطرقه وهو الأخير حتمًا، ولن أجعلها سبعة سواء نجحنا أو فشلنا.

خرج جارهم تتجاذبه رجفة برد طارئة وتعانقه رعشة خوف ثابتة وهو يقول:

- أهلا... أهلاً أختي أم أحمد، تفضلي.. عسى ما أصابكم مكروّه؟

فقالت بلهجة جامعة بين الرقة والرجاء في إعادة مكررة لما قالته في المرات الخمس الماضية:

- هذا أخي سلمان جاء لزيارتنا من بغداد، وزوجته الآن في شدة الطلق، نحتاج سيارتك لنقلها إلى المستشفى، لو سمحت من فضلك وإحسانك ولك منا جزيل الشكر والامتنان والأجر من الله في الدنيا والآخره.

اعتذر الرجل بارتباك مَثَله مَثل الخمسة الذين قبله:

- لا تعز السيارة عليكم يا أختي أم أحمد، خذيها فداك وفداء مجيئكِ وشقيقك علينا في هذه الساعة، لكن اعلمي أنها خالية من الوقود، فارغة تمامًا، لو عندك ما يكف من الوقود خذيها وسأضع نفسي معكم وفي خدمتكم.

- آسفة... لا يوجد عندي وقود ولا قطرة واحدة.
- أترك الأمر لكِ أم أحمد، تصرفي وخذيها بلا استئذان من هذه اللحظة.

فأجابه سلمان مستدركًا:

- شكرًا أخي العزيز ونأسف لإزعاجك... تصبح على خير.
- وأنتم على ألف خير.

بدا سلمان شبه يائس قال وهو يلهث من شدة التعب:

- يا إلهي ماذا نفعل الآن؟

فجأة صاحت أوهام وهي تشد المنديل حول رأسها وتعدل وضع عباءتها على رأسها.

- ها... ها... وجدتها، عندي فكرة...
- ماذا يا أوهام؟ هيا قولي ما عندك ونوّري ليلنا البهيم بنور أفكارك!
- مادام المطر قد توقف لننتهز الفرصة ونقاوم البرد وما تبقى من ريح بطيئة ونقف على جانب الشارع العام وسلمى معنا، نعترض طريق السيارات الذاهبة إلى الرمادي.
- وماذا بعد ذلك؟

- نقطع الطريق على السيارات المارة رغم شحتها وتباعد أوقات مرورها، لا نسمح لقائدها بالمرور حتى يأخذنا معه، سنفرض أنفسنا عليه بالترجي واستدرار المروءة أو حتى تطفلاً.

- هه... قطاع طرق... سنتصرف كقطاع طرق!

رفض أحمد الفكرة واحتج بوضوح وقوة:

- لا...لا، كيف؟ كيف لنا بفعل مشين معيب محفوف بالمخاطر كهذا يا أمي؟

- لا عليك يا ولدي ولا تحمل همًا، ليس من حل غيره أبدًا، ومن يملك حلاً يستطيع عليه فليقل ولا يسكت، وأعتقد هذا ليس وقت مناسب للاحتجاج والاعتراض والتشبث بالقيم والمثل العليا، نحن نعيش المحنة، والعطشان يشرب من البحر... أليس كذلك؟

- نعم أختي العزيزة معك كل الحق، لنتوكل على الله.

اتكأت سلمى على زوجها وبإسناد من أوهام خرج الثلاثة عبر أزقة الخالدية المظلمة في مسيرة بطيئة، يجرون أجسامًا أوهنها التعب، ويسحلون أقدامًا أثقلتها الوحول، وكان السقوط عقب كل تعثر أو انزلاقة مصيرًا حتميًا لهم لولا لطف من الله.

بعد حين مرت سيارة مسرعة قليلاً يلفها الظلام وقد أطفأت أنوارها، لم تنفع معها إشارة المغلوب على أمرهم لتتبعها أخرى بعد طول انتظار، ذهبتا بعيدًا وذهب معهما رجاء مرتجى، مر وقت ليس بالقصير وأخذ معه ما كان من صبر قليل أصلاً كاد أن يطيح بالآمال المعقودة، ويعود بالمسألة والتي باتت معضلة كبرى إلى نقطة البداية من جديد.

مع تأوهات الألم وصرخات الاستغاثة هفت القلوب وتطلعت الأبصار إلى البعيد، استجابة لما تلقفته الأسماع، إنه صوت سيارة قادمة ليست بالسرعة الكافية، هكذا تبدو، لا يجب أن تمر، بل يجب استثمار الفرصة وإيقافها.

رفضت اعتراض شقيقها وتحذيره، وقفت أوهام وسط الشارع العام معرضة نفسها للخطر متصدية للسيارة ومعترضة طريقها، وهي تلوح بيدها بقطعة قماش بيضاء لقائدها المتمهل أصلاً في القيادة، حتى تمكن أخيرًا من الوقوف الصعب في المكان المناسب، وفي اللحظات الأخيرة، متفاديًا الاصطدام بالمرأة المعترضة لطريقه، بادر إلى الصياح بغضب:

- ما هذا؟ ما الذي جرى لك يا أخت؟ لماذا تقفين هكذا وسط الشارع الزلق المظلم وتعرضين نفسك للخطر، كدت أدهسك لو لم أتدارك الأمر بصعوبة اللحظة الأخيرة.

ذهل الثلاثة وهم يتأكدون من نوع السيارة المتوقفة أمامهم، واطلعوا على هوية من بداخلها، إنها سيارة جيب عسكرية حديثة، قائدها برتبة عريف وخلفه ضابط كبير برتبة عميد ركن!

نبهت أوهام شقيقها ووضحت له الصورة، إنها متأكدة ولضعف بصره وخاصة في الليل أنه لم يتمكن منها، ارتبك سلمان كثيرًا وتحدث متلعثمًا:

- مـ مـ مرحبًا سـ سـ سيدي العميد طابت أوقاتك، أأأنا... أنا آسف، هذه زوجتي جاءها الطلق منذ الأصيل، ولم نتمكن من العثور على من يساعدها على الولادة أو نقلها إلى المستشفى، ولم يبقَ لنا غير تصرف كهذا.

- وما الذي أستطيعه من أجلكم؟

- أن تنقلنا معك في هذه السيارة إلى مستشفى الرمادي للولادة.

- لكن يا ولدي هذه سيارة عسكرية، وكما ترى الطيران المعادي يملأ الجو يسرح ويمرح، أخشى أن تتعرض السيارة

للقصف وأنتم معي على الرغم من الجهود المبذولة في التموية والإخفاء.

انتفضت أوهام من مكانها تخاطب العميد بجد:

- حالنا من حالكم سيدي، وبدونكم لن نكون في حال أفضل وحياتنا ليست أغلى من حياتكم.

- ممنوع...ممنوع يا ابنتي، لا أستطيع الموافقة على أمر كهذا، أنا أخاف عليكم أنتم، أما أنا في حياتي العسكرية معتاد على مواقف كهذه.

- أرجوك يا سيدي، ألا تسمع صراخها، اعتبرها ابنتك أو أختك.

- وهي كذلك فعلاً، كلكم أولادي، لذا لا أستطيع أن أعرضكم لخطر الانتحار معي.

هدأت أوهام من لهجتها كأنها تضع العميد أمام أمر واقع لا بديل له:

- الله كريم هو الحافظ الستار، سنصل سالمين حتمًا بعونه تعالى، وإذا شاء أمرًا غيره فليكن، لا راد لكلمته ولا إرادة فوق إرادته... سبحانه.

شخصت الأعين وهَفْت القلوب تنتظر قرار يصدر عن العميد الذي بدا عليه التردد والعصبية والتوتر، كأنه في مأزق، سأل العريف يستشيره كأنه يتخلى عن مسؤولية القرار:

- ها عريف جعفر ما رأيك أنت... ماذا تقترح؟

- أقترح يا سيدي أن نأخذهم معنا، مساكين لا وسيلة أخرى أمامهم والله معنا كما قالت بنت الحلال، من يدري بوجودهم معنا لعل السلامة تكتب لنا أنا وأنت بدل المخاطر التي واجهتنا على طول الطريق من بغداد إلى هنا ولثلاث ساعات مضت.

- ولهذا السبب أنا خائف عيهم.

- لا تقلق سيدي، طائرات الأعداء الحديثة من التطور بحيث تُمكن الطيار من التعرف على نوع السيارة والنساء والمدنيين في داخلها، وأنت زين العارفين.

- حسنًا عريف جعفر، سأنتقل إلى جوارك وليجلسوا هم في المقعد الخلفي.

- هذا هو الصواب سيدي... تفضل.

وهكذا انطلقت سيارة الجيب العسكرية بأفرادها الخمسة تحفهم رعاية الله وحفظه.

بنظرة غضب واضحة حملق سلمان عبر النافذة الصغيرة نحو السماء المكفهرة الداكنة، ولشدة تعبه نسي نفسه وذهب في إغفاءة خفيفة شاهَدَ تحت وطأتها السماء تنجلي وينبثق منها مارد عظيم جبار بهي الطلعة، باسم بشوش الملامح يقف أمامه بخشوع العابد لمعبوده، وطاعة العبد لسيده هاتفًا ينشد رضاه:

- شبيك لبيك عبدك بين يدك، سيدي سلمان اطلب ما تشاء، منك الأمر وعلينا السمع والطاعة.

يرد عليه بلغة الواثق من نفسه وبلهجة الآمر الناهي:

- أيها المارد... أوصلنا إلى المستشفى بسلام وأمان.

- سمعًا وطاعة سيدي سلمان.

وضع المارد السيارة على راحة يده وطار بها، لكن سلمان صحى من غفوته على هزات أوهام له وهي توقظه معنفة:

- سلمان... سلمان، هل نمت أم سرحت، استيقظ يا سلمان، هذا ليس وقت النوم والسرحان.

- ماذا أيها المارد؟

- ماردا! أي مارد هذا، نحن في وادٍ وأنت في واد... انتبه لزوجتك ولا تغفل عنها، لاحظ أن صراخها قد تلاشى تقريبًا وتحول إلى أنين يشبه الخوار وكأنها في النزع الأخير.

وجم سلمان وامتقع لونه خوفًا وجزعًا، وتمتم بكلمات غير مفهومة تشبه الهذيان، فقاطعه العريف مستدركًا ومعين:

- اطمئنوا ولا تخافوا، إنها في حالة سكون يشبه الراحة نتيجة الجهد والكبير والتعب الذي قاست منه على مدى الساعات الماضية.

عاد العميد يسأل:

- منذ متى بدأ الطلق معها؟

- منذ الخامسة مساءً والساعة الآن الثالثة صباحًا.

- مسكينة، يبدو أنها متعبة كثيرًا، مضى الكثير ولم يبقَ إلا القليل، وسنصل بعد نصف ساعة إلى المستشفى.

أيده الجميع بعبارة إن شاء الله، فتابع العميد حديثه واستمر يتبادل الحديث مع سلمان:

- الطريق بين بغداد والرمادي غير مزدحمة، وخالية من السيارات تقريبًا، المفروض وفي ظروف كهذه أن نقطعها بساعة

ونصف، لكن مضت علينا أكثر من ثلاث ساعات ونصف ومازلنا لم نصل بعد.

- لماذا... هل من عوائق، تعطلت السيارة مثلاً؟

- ليس الأمر كما تتصور، كنا نترك السيارة بين الأشجار وأكواخ الفلاحين ونختبئ في مكان آمن كلما شَعرْنا بوجود طيران مُعادي قريب، ونعود إلى السيارة ونكمل طريقنا بعد انتهاء الغارة، وهذا سبب تأخرنا.

- الحمد لله على سلامتكم سيدي، ويخذل أعداء العراق وأعدائكم الأوغاد وينصركم عليهم.

قطع العريف حديثهما محذرًا منذرًا:

- سيدي العميد، طيران مُعادي منخفض جدًا خلفنا، ماذا سنفعل الآن؟

قبل أن يكمل العريف كلامه أخرجت أوهام رأسها وذراعها من نافذة السيارة وبدأت تلوح لقائد الطائرة بقطعة القماش الأبيض، إنها تحذره وتنبه بوجود مدنيين ونساء داخل السيارة، أكد العميد أن الطيار قد شاهد الإشارة وفهمها، وأمر العريف بمواصلة المسير

معبرًا عن سعادته، شكر أوهام على حسن تصرفها وأثنى على شجاعتها وامتدح ذكائها.

اقتربت المقاتلة من السيارة ودارت حولها مرتين، ثم ارتفع قائدها وهبط أكثر من مرة يستعرض مهاراته بحركات بهلوانية، كأنه في معرض تجاري لا في حالة حرب، وذهب ربما ليضرب هدفًا آخر في مكان آخر!

استمرت السيارة في سيرها حتى وصلت أخيرًا إلى المستشفى، نزل عنها ركابها الثلاثة مودعين العميد وسائقه، شاكرين حسن صنيعهم، مثمنين معروفهم، داعين لهم بالأمان والسلامة الدائمة، وهكذا فعل العميد في أطيب الكلام وأسعد الأماني.

• • •

في صالة الولادة داخل المستشفى مَدّتْ سلمى طولها المعتدل على الأرض ورأسها في حجر أوهام، يستمعن إلى لحن نشز بأصوات غير متجانسة، تؤديه مجموعة من النسوة جمعهن ذات الموقف وذات الظروف ساعات طويلة، نفذ صبر أوهام ولم تعد تحتمل، فصبت جام غضبها على ممرضة تواجدت بالقرب منها، وقد

بدأت الشمس تنشر أول ضياءها، سرعان ما تبعته بنور شعاعها البراق النافذ بخجل من خلال الغيوم المتفرقة بعض الشيء:

- أنتم، ما حكايتكم؟ نحن هنا منذ ثلاث ساعات وأكثر، لا أجد منكم من يتحدث إلينا أو يسأل عن حاجتنا، أين الطبيبات؟ أين الممرضات؟

ردت عليها الممرضة بابتسامة خجولة وهدوء متواضع موجهة حديثها لأسماع الحاضرات:

- مهلاً يا أخت ولا تغضبي، هنا من جاءت قبلها وفي حال أسوأ من حالها قبل الولادة وبعدها، والقادمات أكثر من المغادرات، حتى ضاقت المستشفى ولم تعد تتسع، لا أسرة كافية عندنا ونحن ثلاث طبيبات وست ممرضات وثلاث عاملات فقط، وها نحن ساعيات فوق طاقتنا وبكل جهد ممكن، حتى طعامنا نتناوله ونحن واقفات، وننام بالتناوب في ساعات متقطعة، هذا هو حالنا منذ بدأت الحرب، ولليوم الخامس على التوالي تفاقمت المشاكل وتعقدت أكثر بانقطاع التيار الكهربائي والماء الصافي، ومع هذا نسمع منكن ما لا نحب ومن سوء المعاملة وقلة الاحترام ما لا نريد ونرغب، بدلاً من المساندة بالدعم المعنوي والتشجيع.

أسفت أوهام واعتذرت للممرضة، وهذا ما دفع النساء من حولها للحذو حذوها واستبدال ما كان بالمدح والإطراء.. عند الضحى خرجت ممرضة إلى البهو الخارجي حيث ينتظر الرجال، ونادت بصوت رخم جميل:

- سلمان داود.. من هو سلمان داود؟
- نعـــ... نعم أنا... أنا سلمان داود.
- مبروك جاءكم ولد جميل.. هو وأمه في صحة جيدة.
- الحمد لله وشكرًا لك يا أختي.
- ماذا ستطلق عليه من اسم؟
- أُسميه... أُسميه ...أُسميه منتصر، نعم منتصر في ظل ظروف نعيشها وظروف وُلد فيها لن أجد له اسمًا خير من هذا...

خرجت أوهام تحمل الوليد بين ذراعيها وسلمى خلفها تسحل قدميها، وقد بان عليها التعب والخور، فاستقبلها سلمان مرحبًا ومشجعًا، يزف التهاني بكلام لطيف جميل، حدثت أوهام شقيقها متسائلة وابتسامتها العريضة تسابق كلماتها:

- هل علمت كيف وَلدت زوجتك؟
- كيف ولدت؟ كباقي النساء أليس كذلك؟

– لا...ليس كذلك، وهذه المعروفة بولاداتها المتعسرة سابقًا شذت عن قاعدتها هذه المرة، لقد ولدت على الأرض، بهدوء وبدون صراخ تفاجأت بخروج الجنين منها ورأسها في حجري وفي المرحلة الأخيرة حضرت طبيبة وممرضة لإتمام عملية الولادة وبسهولة غير متوقعة ولا نظير لها!

– أوووووه... هكذا؟!

– نعم هكذا، لو علمنا أن الأمور ستنتهي على هذا النحو لفعلناها في البيت بمساعدة بعضهن وما تجشمنا عناء ومشقة المجيء إلى هنا.

– الحمد لله على السلامة وشكرًا لك أختي العزيزة.

• • •

أواخر شباط/ فبراير ١٩٩١ توقفت حرب الخليج الثانية فيما يخص عمليات استعادة الكويت فقط، لكنها استمرت حرب جوية داخل العمق العراقي، ولم تنتهِ بحجة تنفيذ قرار فرض منطقتي حظر طيران سلاح الجو العراقي في المنطقتين الشمالية

والجنوبية[1]، وكسابقتها الشعب هو من دفع الثمن والجيش هو الضحية، لقد فاضت الأرض بدماء أبنائه الشباب مدنيين وعسكريين على السواء والطريق الدولي الرابط بين الكويت والبصره أسوأ شاهد، حتى سميَّ {طريق الموت}، ومفاوضات خيمة سفوان والتنازلات المهينة والمذلة التي قدمها الأحمق صدام حسين حفاظًا على نظام حكمه من السقوط ومُلكه من الزوال ونفسه وحاشيته، من الضياع والتشرد مقابل الشروط المفروضة لوقف الحرب والتي لم يطلع الشعب على تفاصيلها كانت الشاهد الأسوأ الثاني.

شاهدان في غاية السوء وقمة الرذيلة يشهدان بأسوأ ما مر بالعراق من وقائع وأحداث في أرذل أيامه، عبر تاريخه الطويل...

---

[1]- للمزيد من التفاصيل انتظروا (البديل) نعد له وسيصدر لاحقًا، لا نريد الكمال ونسعى إلى جمهورية أفلاطون المثالية، أو مدينة أبي العلاء المعري الفاضلة، لكن الحروب على هذا المستوى بلا معنى ولا داع لها في أغلب الأحيان لا تزال تؤدي بحياة أعداد كبيرة من الأبرياء وإفراز أضعافهم من المصابين والمعوقين ذوي الاحتياجات الخاصة، وأكثر منهم لاجئين، وكم هائل من مشردي المخيمات، وأعداد لا تحصى من الأطفال الأيتام والنساء الأرامل والأمهات الثكالى عدا ما تخلفه من دمار وخراب وضياع الجهد البشري ونفاذ الأموال.

أرحم منها يوم سقوط بابل بيد الفرس، وأكبر من يوم سقوط بغداد بيد هولاكو، فسُلِبت الأذهان وأطيح بالنفوس وتشتت الأفكار قبل سلب الأرواح والإطاحة بالأجساد، وسلب إرادة الفرد والمجتمع وانتزاع كل ما يمت لمعاني الحياة الحرة الشريفة بصلة..

عاش العراق وسيعيش في ما يلي من سنين طويلة تعد بالعشرات في عالم مليء بالشر والقسوة والظلم وحمّلته الأحداث وستحمله أحمالاً ما طاقها في سالف الزمان، ولا يطيقها في قادم الأيام أي شعب على هذه الأرض، أحمال لا تجلب سوى التعاسة والخوف وحياة مثقلة بالآهات والهموم، يلفها ظلام دامس، ملغمة بعتمة تليها عتمة، إنه المرور القسري بحالة اليأس وما يرافقها من ذل وحرمان...

إن انتكاسة العراق كبيرة مدوّية بالإضافة إلى بقاء نظام القمع والتعسف متسلط على الرقاب، وفقده للكويت ولم يتمكن من الاحتفاظ بها سُلب جانب من أم قصر موضمه ملتحقًا بالكويت، استمرار الحصار الاقتصادي، بقاء العراق تحت البند السابع من ميثاق الأمم المتحدة، خروج كردستان في كيان إداري ضم ثلاث

محافظات هي أربيل ودهوك والسليمانية مستقل عن إدارة الدولة، وما خفي كان أعظم!

هل انتهت الحرب حقًا؟ ماذا تخبئ لنا الأيام بين طياتها؟

وهل من حروب أخرى قادمة، وضد من؟ وما هي نتائجها؟ ماذا سيحل بالعراق والعراقيين، وهل من رجاء للوطن والشعب بالنجاة منها؟.

أسئلة وقحة تحتاج لأجوبة أكثر منها وقاحة، لعلها تسفر عن الوجه القبيح لمستقبل قادم... لعلنا نحتاج لأسئلة أخرى صعبة هذه المرة يستحيل الإجابة عليها!

هل ستنتهي النزاعات والحروب وتندثر آلامها؟

كيف يموت الظلم والطغيان وتمحى ذكرياته؟

متى نتخلص من الخوف وحليفه الحرمان ويشتت تآزرهما إلى الأبد؟ في الحرب... البؤس والآهات والآلام كؤوس مُرة يشربها الجميع المنتصرون والمنهزمون...

بينما... السلام على الأرض وبين أحضانه وفي ظلال ملكوته يُعلم الناس الحب ويقودهم إلى بر الأمان.

السلام حقًا... ثروة من لا ثروة عنده، وكنز من لا كنز له، لا تضاهيه كل ثروات وكنوز الدنيا ما دامت الشعوب ترفل في ظله آمنة مطمئنة.

• • •

بسبب ندرة الموارد المالية وقلة أجور العمال ومرتبات الموظفين؛ أكل عامة الناس دون خواصهم خبز من خليط عجيب غريب، لاكته الأفواه عنوة، وارتبطت حياة الفقراء منهم بشيء جديد اسمه الحصة التموينية الشهرية، وتفشي الفساد الإداري وانتشاره مع الرشوة كالوباء وتجسد المحسوبية والمنسوبية، هذه مفردات في مجموعها أخذت مأخذًا غير مناسب، وتميزت بميزات غير طبيعية، لعبت أدوار فاعلة رئيسية على مسرح الحياة اليومية، كان من نتائجها انتشار الجريمة المنظمة والفردية سواء بسواء، كل هذا أفرز نتائج سلبية وبان المجتمع العراقي في صورة ضبابية مشوهة.

دخل سلمان متعبًا فبادرت سلمى إلى القول متسائلة:

– لقد تأخرت كثيرًا يا سلمان، أين كنت؟

– مرحبًا سلمى... السلام عليكم يا أبي العزيز.

– وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته.

- كنت ومجموعة من الأصدقاء والجيران في مجلس عزاء جارنا صابر الصائغ.

- حسنًا فعلت يا ولدي، لقد كان رحمه الله رجلاً طيبًا وجارًا حميدًا وصديقًا مخلصًا.

- مسكينة زوجته، علمت يا أبي أنها في المستشفى في حالة نفسيه وبدنية سيئة للغاية، أغمي عليها حال سماعها بخبر مقتل زوجها وما جرى له ولليوم الثالث على التوالي.

تساءلت سلمى بدهشة وذهول:

- ماذا جرى بالظبط؟

- دخلت عصابة مسلحة، مجموعة من اللصوص القتلة، قتلوه مقيدًا بالحبال وسرقوا ماله، كل ما وجدوه أمامهم ووقع بين أيديهم، ولم يتركوا خلفهم غير الموت والخراب والتراب.

- أف... ارتفع معدل الجريمة بسرعة مذهلة هذه الأيام، حتى السلطات لم تتمكن من اللحاق والمتابعة، وما عاد المواطن يأمن على حياته وماله وعرضه.

- يا والدي.. السلطات الأمنية لا علاقة لها بالمواطن، تركته لشأنه هو يدبر أمنه بنفسه، وانكبت على متابعة ما يعني

النظام وسلامته وملاحقة ذوي الرأي الحر أصحاب الكلمة النبيلة والقلم النجيب، وهذه هي الفرصة الذهبية الثمينة التي استغلها المجرمون لتنفيذ مآربهم بعد أن خلت الساحة لهم وأمنوا من ملاحقة السلطات لهم، لا عجب إذن لو علمت أن أكثر الجرائم ينفذها رجال الأمن أو بالتعاون معهم وتحت إشرافهم، باختصار حاميها حراميها.

لا أستطيع إحصاء الحوادث التي سمعت عنها هذا الشهر في محافظة بغداد فقط، فهذه ثالث جريمة قتل، واحدة لطبيب في عيادته والثانية لصاحب محل بقالة، وسرقة تسعة دور سكنية وأربعة محال تجارية، وحالة خطف واغتصاب واحدة وسرقة عدد كبير من السيارات، ناهيك عن تلك التي لم أسمع عنها وحوادث المحافظات البعيدة، إنه عراق العبودية والذل والهوان، وغابة يتسلط بها القوي على الضعيف، في مستقبل قريب ستمر علينا أيام قادمة نترحم بها على أيامنا هذه لَمَ لا ما دامت الأمور في تدهور مستمر وكل شيء يتراجع نحو الأسوأ وشبح الحرب الثالثة مازال قائمًا والنظام القائم في أنفاسه الأخيرة وأزلامه يجاهدون للبقاء أطول مدة ممكنة تحت مطرقة تهديدات الانجليز والأمريكان، لن نرفع الحصار عن العراق مادام صدام حسين في

السلطة هذا ما قالته المرأة الحديدية مرجريت تاتشر رئيسة الوزراء البريطانية وسيظل العراق تحت البند السابع حتى سقوط صدام هذا ما قاله جنرال أمريكي رفيع!

- العيش في هذه الدنيا يا أولادي شيء رائع وجميل، لأنه منحة إلهية ليس من المعقول انتزاعها ظلمًا وعدوانًا بغير ما تقره الشرائع الإلهية أو القوانين المرعية في الدولة المعنية، والتي يجب أن تراعي أهمية حقوق الإنسان وتوفير الحماية له حفاظًا على حياته وعرضه وأملاكه وتوفير التعليم والسكن الملائم والعمل المناسب والرعاية الصحية، فضلاً عن الخدمات والـــــــ....

قاطعته سلمى كأنها غير مقتنعة:

- مهلاً... مهلاً يا عمي العزيز، تريد كل هذا؟ من أين لنا وسنرضى بقليله؟!

- أسألك يا والدي عما قلته، هل أنت تطالب بحقوقك كمواطن وإنسان أم تتمنى أم تحلم... أم ماذا؟

- ها... لست أدري سأترك الخيار لكم، أنا فقط أتحدث عن حقائق لا بد منها.

حينئذ رن جرس الهاتف فأسرع سلمان للرد عليه.

- نعم... من؟ ماهر، وعليكم السلام...

- ....

- ماذا يا ماهر؟ تحدث بهدوء حتى أفهمك.

- ....

- ماذا تقول يا رجل؟

- ....

- يا إلهي متى حدث ذلك؟

- ....

- أنا قادم الآن، لن أتأخر مسافة الطريق فقط.

ما أن أنهى ماهر المحادثة حتى انهال عليه سيل أسئلة عن المتحدث والحدث فأجاب بحزن وأسف شديدين:

- إنه ابن عمي ماهر اتصل يخبرني عن والد صديقنا حازم، حاولت شرذمة مارقين سلب سيارة الرجل وانتزاعها عنوة وحين رفض قتلوه بداخلها.

- إنا لله وإنا إليه راجعون، لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

غادر سلمان مسرعًا للوقوف إلى جانب صديقه حازم ومساعدته في محنته.

• • •

في مجلس عزاء أبو حازم، يدخل الناس إلى قاعة المسجد في حالٍ من الحزن الشديد، بينما وقف حازم وبعض أهله جاهدين في استقبال المعزين القادمين وتوديع المغادرين.

أحاديث جانبية جماعية وعلنية تدور كلها بين ساءل ومجييب حول الحادث وملابساته، كيف وقع وأين ومتى، وهل تمكنت الشرطة من التعرف على الجناة والقبض عليهم...

وأحاديث ثنائية كل مع من بجانبه تدور همسًا وبحذر فوق العادي، خوفًا من مخبر أمني مندس أو حزبي مبعوث من أولئك المندسين في كل مكان، بما يخطر وما لا يخطر على بال، مهمتهم الإيقاع بهذا وذاك طلبًا لترقية وظيفية أو درجة حزبية أعلى، وهذا نموذج لحديث ثنائي:

– ماذا عن ولدك يوسف، هل حصل على الوظيفة التي تقدم لها؟

– لا... أخذها غيره.

- كيف؟ ألم تخبرني أنها مضمونة له، ولا منافس عنده ذات المؤهلات ينافسه عليها؟!

- نعم هذا صحيح، لكن...بالنسبة لهم من هو يوسف من يكون وابن من؟ من هو أبوه ومن هم أعمامه وأخواله حتى يحصل عليها؟ الوظائف المهمة المرموقة والترقيات والمكافئات والبعثات التدريبية والدراسية؛ محجوزة لأصحاب النفوذ من خواص وأقارب الرئيس القائد الضرورة حفظه الله ورعاه، وأولاد وأقارب من يدور في فلكه من المسؤولين الحزبيين والرسميين، أما نحن عامة الشعب فجنود فقط، جنود نُزَجُ في ساحات القتال نخوض حروب الزعيم المفتعلة لنخسر أبناءنا وأرواحنا وأموالنا ومستقبلنا في سبيل انتصاراته الوهمية وبقاء عرشه وحاشيته وبطانته.

- اسكت، اسكت يا رجل، لا تأتينا بمصيبة لا نخرج منها.

- مصيبة؟ أي مصيبة أكبر من المصائب التي نعيشها، هل سمعت عن سرقة محل سيد علاء؟

- نعم سمعت أن أقفال محله كسرت ليلاً وسرقت كل محتوياته، وأنه تمكن من التعرف على اللصوص وأبلغ الشرطة وألقت القبض عليهم.

- دليل إدانة قوي ومحكم، بوجوده وبعد يومين أطلقت الشرطة.. عفوًا أنا آسف أقصد أطلقت الرشوة سراحهم لعدم كفاية الأدلة، جاء هذا بقرار شركائهم الشرطة وقاضي التحقيق المرتشي!

- أووووووه!

دخل شخص ثالث في الحوار كان ينصت لهما دون علمهما:

- ليس هذا وحده فقد قبض جارنا على لص حاول سرقة داره وسلمه إلى الشرطة، بعد يومين أطلق سراح اللص واعتُقل جارنا بدلاً منه.

ارتبك الاثنان لمفاجأة كبيرة كهذه وقالا معا كلامًا تداخل مع بعضه:

- كيف سمعتنا يا رجل ونحن نتحدث همسًا وأنت على مبعدة منا؟!

- لا همسًا ولا هم يحزنون، كان صوتكما مسموعًا، انتبها أكثر في المرات القادمة وإلا ذهبتم إلى الجحيم، والآن هل ترغبان بمعرفة كيف انعكس الأمر وانقلب على جارنا؟

- لا... لا، شكرًا هذا كافي، عندنا المزيد مثلها وأكبر.

أعاد الرجل قراءة الفاتحة واستأذن وخرج تاركًا الرجلين في حوار عتاب ساخن:

- ألم أقل لك اخفض صوتك، أنا خائف، هيا... هيا بنا نغادر المكان حالاً ربما سمعنا غيره.

- ما بك خائف هكذا هدئ من روعك يا أخي أنت مريض، وأنا من يخاف عليك من ارتفاع ضغط الدم والسكري، أنت هكذا دائمًا تبالغ في تعظيم الأمور وتصور الشرارة حريق.

- حقك، لم تدخل يومًا دائرة أمنية تخضع للتحقيق ولو لساعة واحدة عن كلمة طائشة لفظتها سهوًا أو بوشاية مستك من قريب أو بعيد ولا إلى مركز شرطة عادي، يجب أن تذهب تؤدي واجب الزيارة وتبات هناك عدة ليالي تتلقى خلالها الدروس النظرية والعملية لتتعلم كيف تخاف مثلي ومثل غيري وربما أكثر.

– أعوذ بالرحمن الرحيم من أفكارك المسمومة، هيا بنا نعيد قراءة الفاتحة ونخرج.

جاء على العراقيين وقت صار الحذر والخوف واجب وحق عليهم وكان المواطن عرضة للموت تحت قسوة التعذيب، والتفنن بطرق الموت والإعدامات المبتكرة في السجون السوداء المظلمة والقاصات الحمر[1]، التي زاد عددها في العراق على عدد الجامعات والمكتبات العامة معًا وإذا أضيفت لها السجون السرية ومعتقلات مراكز الشرطة فإن العدد سيزيد على عدد مدارس التعليم قبل الجامعي، وعدد المعتقلين يزيد على أعداد الطلبة في كل المراحل... وهذا ما ثبت وبان بوضوح بعد سقوط النظام وما أفرزته وقائع المقابر الجماعية المكتشفة بالجملة.

[1]- القاْصات: مفردها قاصة كلمة محليّة تعني الخزانة الحديدية, سُميت هكذا لأن ضابط الأمن يأمر أحد مساعديه مشيرًا إلى الشخص المعتقل بقوله (حطه بالقاصة) أي احفظه فيها، ولأنها غرف تحت الأرض قليلة المساحة تضيق بنزلائها, مضاءة بالضوء الأحمر فقط حتى تسبب العمى للمعتقلين فيها, لا يخرج منها أحد أبدًا إلا لقبره، ولهذا السبب ظلت مجهولة في طي الكتمان، واحدة من أهم أسرار نظام صدام، ولم تكتشف ويعلن عنها إلا بعد سقوطه, ورثها المالكي وأعاد استعمالها، ولعلها مازالت موجودة حتى اليوم، لذا المعلومات والأخبار شحيحة عنها.

• • •

جَلَبة مسموعة وهرج واضح أيقظ عائلة سلمان من نومهم، فهبوا فزعين مستشعرين خطرًا داهمًا، وأمر غريب يقع في زقاقهم وقت السحر عند الثالثة بعد منتصف الليل، خرجت الأم تستطلع الأمر، عادت بعد حين تجري لاهثة ومعها الخبر اليقين:

- أسرعوا إنهم الشرطة والمنظمة الحزبية ومعهم المختار، إنهم يعتقلون جارنا منير ويأخذوه معهم بحجة أنه شتم صدام حسين.

- أوووووه... هذه حجة سخيفة ونكتة تافهة قديمة،كل مرة يقبضون على مسكين بهذه التهمة الباطلة، قبل ثلاثة أشهر قبضوا بها على شاكر الحاج تقي ومازال في محنته لحد الآن، وبنفس الطريق اختفى صديقنا أحمد وفُقد أثره وانقطعت أخباره منذ خمسة أسابيع.

أبدى الأب رأيًا لم يعد جديدًا:

- لو كرهت أحدهم ورغبت بالتخلص منه أو الانتقام من خصم؛ يمكنك كتابة تقرير حزبي أو تقديم بلاغ أمني عنه،

هذه أسهل وأسرع وأرخص طريق تسلكها.

تدخلت سلمى لتروي حادثة رهيبة:

– في مدرسة الأطفال الابتدائية بصق طفل صغير على صورة صدام، سألوه عن السبب قال أبي يفعل هذا إذا شاهد صدام على شاشة التلفاز... هه، يمكنكم التعرف على بقية الحكاية!

– نعم يا ابنتي هذه حادثة صحيحة سمعنا عنها وعن غيرها الكثير، بكل تأكيد أب كهذا لا ولن يجد الرحمة، ولا ولن يعود إلى بيته وأسرته، لقد ذهب بلا رجعة وطفل لا ولن يبرأ من تبعاها ويشفى من آثارها، وستستمر عقدة الشعور بالذنب تنغص عليه حياته ما عاش.

الجزء الثالث

طيور بلا أجنحة

كيف لنا أن نطير...

نهجر وطنًا... عراق حبيب امتلكه الأجداد

بناه الآباء.. افتديناه بالأرواح...

نُهمل عشًا أُمرنا بالتمسك به والحفاظ عليه

نتركه للثعابين...

نهجره... نتركه... نهمله

وبلا أجنحة... عنه نطير...

حاسب الخميسي

حتى لا يُعدُّ ما سأكتبه تجريحًا وتشهيرًا سأتجنب المفردات الدالة والتسميات الصريحة، على الرغم من سيل الرسل والأنبياء والنزاعات والحروب الدينية؛ ليس كل البشر يعبدون الله ويؤمنون بوجوده، بعضهم أفراد على مستويات عالية من التعليم والثقافة المعقولة، وينتمون فعليًا لأديان سماوية بالوراثة، ويعيشون في مجتمعات المفروض أنها مؤمنة، وهذا واضح من خلال العمق التاريخي والانتشار الواسع للمساجد والكنائس ودور عبادة أخرى بكل مسمياتها...

أو شعوب بكاملها تعد بالمليارات وتمثل نصف البشر يتبعون رسالات وتعاليم شخصية، لأفراد معدودين لم يدعوا النبوة، وما حملوا سيفًا... هذا يعني أن الله بكل عظمته وأسماءه الحسنى لم يقدر أن يوحد البشر ويصهرهم في بوتقة واحدة على عبادته والإيمان به، كإله واحد ولو بأديان وعقائد وطوائف دينية متعددة[1].

[1] - صفحة مقتطفة ومختصر من (الله بين الحقيقة والخيال) بحث جديد نعد له... انتظروا التاريخ ليروي لأجيالٍ قادمة كيف وقف الأجداد بكل انتماءاتهم لثماني سنوات متتالية صفًا واحدًا دفاعًا عن عراقهم لصد العدوان الإيراني ودحره، ومنع سقوط

السلام يحررنا من المخاوف التي تحتل قلوبنا، وتلغي إرادتنا وتطفئ أسرجة عقولنا، وتكبل بلا أصفاد أفكارنا، ويمنحنا الفرح والرجاء ويشفينا من علل وآلام نبتلى بها.

لكن البشر جميعهم إلا ما ندر توحدوا وأجمعوا على حب الأوطان والاعتزاز بها، والإخلاص والوفاء لها، والتضحية لأجلها بالغالي والنفيس، وهذه من أنبل وأشرف الغرائز البشرية...

والإنسان العراقي الذي جُبِلَ على حب العراق؛ ما كان ولن يكون بياعًا لوطنه العراق الحبيب، هاربًا من أزماته، متخليًا عنه في محنه، والفترة الزمنية ٧٠-١٩٨٢ هي الفترة الذهبية للسياحة والسفر الخارجي، والتي تُعد الشاهد النبيل الأول على لجة العراقي ولهفته بالعودة مسرعًا، يشده الشوق والحنين إلى أرض الوطن، متجنبًا التخلف لاجئًا في أوطان الغربة.

بابل بيد الفرس مرة أخرى... لكن الأحداث المؤسفة تتابعت والأمور تدهورت بسرعة، وما عاد بالإمكان اللحاق بها، حتى اعتاد الناس على شراء الأمن بالإتاوة، والسلامة بالخضوع، والكرامة بالسكوت، ومع ذلك لاحقتهم العقوبات الصارمة الفردية والجماعية على أدنى هفوة في القول أو الفعل!

والحرب العراقية الإيرانية الشاهد النبيل الثاني، حيث كتبت بقلمٍ سطع بريقه ونوّر صفحات، إنها الخاطرة تخطر على البال فتشي بها ملامح الوجه لتقود صاحبها إلى الهاوية، لأن الحاكم الوضيع انتصب عدوًا لشعبه، فأرهب وأفزع وأجفل، فتلاشى الإحساس بمعاني الحياة الحرة الكريمة، ولو في بعض من رموزها السامية في ظل عذاب أليم، حقيقة كان بمثابة المطرقة الثقيلة التي فكت ضرباتها المتلاحقة الرباط المقدس بين الوطن والمواطن.

لم تعد الأمور تُحتمل مع هبوطها في سُلم المساويء، من سيء إلى أسوأ، وكان لا بد من البحث عن الحل، وتعددت الحلول، ومعها تعددت المواقف وتفرقت الكلمة وتمزقت الإرادة على هذا النحو...

١- من وجد النظام واهن وضعيف ولم يبقَ منه غير شكله المرعب وسمعته المخيفة، وهذا منطق صحيح تمامًا، فسلك طريق الثورة وحمل السلاح، منتفضًا بوجه النظام طمعًا بقاعدة شعبية واسعة، وهؤلاء هم من حكم العراق بعد سقوط صدام واستحوذوا على الجاه والمال والسلطة.

٢- غيرهم توقع حربًا جديدة تطيح بالنظام، هذه المرة تسحق رأسه وتُقطّع أذرعه وتشتت شمل ذيوله، وهذا ما كان فعلاً في حرب الخليج الثالثة، فآثر الانتظار بالسكينة والهدوء والتحفز لاقتناص الفرصة وهؤلاء هم الانتهازيون والمنافقون، تبوأ أغلبهم مناصب ثانوية وقلة منهم مناصب رفيعة، وشاركوا الطرف الأول في الحكم والأشياء الأخرى.

٣- من لا حيلة له ولم يستطع مجابهة الحياة ومواجهة صعابها، ولضعفه العام وتردي وضعه المعيشي في الجانب الاقتصادي فضل الانصياع والخضوع والبقاء ضمن ذيول النظام، خرجت الغالبية العظمى منهم بعد السقوط خالية الوفاض وعادت وانضمت إلى عامة الشعب، إلا النزر اليسير منهم من أخذ بيده أقارب له من الفئتين الأولى والثانية.

٤- من ليس له مكان وسط هذه الجموع الثلاثة أو لم يقتنع ويرغب بالانظمام لها؛ حزم أمره وحمل حقائبه وأدار ظهره لوطنه مودعًا أهله وناسه، طار بلا أجنحه مهاجرًا إلى ديار غريبة تقبل به لاجئًا، وكل هؤلاء وبنسبة مئوية عالية من أبناء الأقليات العرقية الدينية والقومية، وبنسبة مئوية متممة لا بأس بها من الطبقة المثقفة المتميزة، أدباء، فنانين في كل

ضروب الفن، علماء متميزون، حملة الشهادات العليا، ذوي الاختصاصات الطبية الفريدة والهندسية المتميزة[1].

• • •

سلمان من الفئة الرابعة، واستعداداته تجري بهمة عالية، وهو الآن يتحدث مع والده بصدد إقناعه وحثه على الموافقة في الخطوة الأخيرة الصعبة:

– مساء الخير يا والدي العزيز.

– مساء الخيرات والأنوار يا ولدي الطيب.

– من فضلك يا أبي جئت أحدثك بموضوع مهم يشغلني، لكن لا أدري كيف ومن أين أدخل.

– أدخل... أدخل يا ولدي كيف ما تشاء، ومن أين ما تشاء، فجميع الأبواب بيني وبينك مفتوحة، هههههه حتى الشبابيك مفتوحة، إذا شئت أن تدخل من الشباك فلا بأس هههههه.

---

[1]- مزيد من التفاصيل على جميع الفئات في البديل, الآن بعض الاهتمام على الفئة الرابعة.

– هههه لا... لا أدخل من الباب ولا من الشباك، سأقفز عبر أسوار قلبك وأستولى عليه، ولا أرده حتى توافق على ما جئت من أجله.

– موافق ولن أعترض، متى اعترضت على ما ترغب وتريد؟

– أعتقد لم يعد العراق آمنًا يا أبي، من الداخل يستمر نظام صدام رابضًا على صدورنا بظلمه وطغيانه، وتفشي الجريمة وانقطاع الكهرباء المستمر وتوقف الخدمات، ومن الخارج مازال الحصار الاقتصادي قائمًا، والعراق تحت البند السابع والغارات الجوية قائمة كل يوم وكل ساعة تدك معسكرات الجيش والمعامل والبنية التحتية، والحشود العسكرية والأعداء يحيطون بنا من كل جهة وجانب، كإحاطة السوار بالمعصم، وحرب جديدة قادمة لا محالة، حرب شرسة ستذهب بما تبقى من العراق وستحيله ترابًا، إنه الصراع المرير بين صدام الذي أقسم على ألا يسلم العراق ويتنحى عنه إلا ترابًا، وأمريكا وحلفائها لعنة الله عليهم جميعًا لا يسكتوا عن عميل جنّدوه وتمرد عليهم، ولن يهدأوا ويستكينوا ويتركوا العراق وشأنه دون اقتلاعه من جذوره، وبـــــ...

قاطعه والده كأنه لا يريد له الاستمرار:

- تمهل... تمهل قليلاً يا ولدي لقد أدميت قلبي، من أين لك كل هذا؟ من أين جئت به وكيف حفظته؟

- أليس ما قلته صحيحًا؟ إنها الحقائق المؤلمة يا أبتي، إذا شئت تكذيبه تفضل كذبه وقل ما عندك وسأصغي لك، أنا أيضًا فتحت الأبواب والشبابيك لتدخل من أين وكيف ما تشاء، ولن أبني سورًا بيننا حتى لا أكلفك مشقة تسلقه.

- ماذا بعد هذه الخطبة العصماء التي أغلقت بها كل أبواب الرحمة وشبابيك الأمل وشيدت الأسوار المنيعة بيننا، وما الهدف منها؟ قلبي يحدثني أن في جعبتك أمر خطير جلل!

- نعم... نعم يا أبتي... أأأأأنا... أنا راغب بالـــــ... بالــــ.... بالــــ....

- تكلم يا بني، أنت ترغب بماذا؟!

- أنا يا أبتي... أنا...

- اهدأ... اهدأ... وهذا قدح ماء بارد، اشرب وتحدث بهدوء وبدون انفعال لقد أقلقتني.

- أنا أفكر بالسفر خارج العراق...

- ماذا؟! تسافر؟!كل هذا الضجيج لأنك تريد أن تسافر، وما المانع؟!

- ليس كما تتصور، إنه سفر تطول مدته وتطووووول... ربما بلا رجعة، من يدري!

- ......؟!

- نعم يا والدي الحبيب إنها الهجرة سفرنا الجديد، نستبدل الوطن بأوطان جديدة، لعلنا نجد فيها ما فقدناه هنا، ونعطيها عطاءً مثمرًا فنسعد بها وتسعد بنا.

- ها... ها... ماذا الهجرة؟! قل غير هذا، فلا ولن أوافق أبدًا، شعاري حشر مع الناس عيد، لست وحدك الشعب كله يعاني، هل الجميع يهاجر ويتركون العراق... ولمن... لمن يتركوه؟

- وما المشكلة، حالنا حال معظم أصحابنا وأقاربنا الذين سبقونا، ولم يبقَ لنا الكثير ممن نزورهم ويزورنا ونشاركهم الأفراح والأحزان، لقد شرحت ظروف البلد، أنا لم أستحم في هذا الحر اللاهب منذ أربعة أيام، وأنت أيضًا، وقد كلت يدك وتعبت ودبت الرعشة فيها من هز المهفة اليدوية، وأنا حزين

كظيم أحتضن مخاوفي وأحمل همومًا ثقيلة على ظهري، مثلي مثل أغلب شباب العراق، ضاع طريقنا في هذا العالم، عالم الزيف والبهتان، وبعد كل هذا تقول عيد، أي عيد هذا يا أبي، أي عيد مع كل هذه المصائب والمآسي والويلات والمظالم، عيد... متى العزاء إذن؟

بعد حوار طويل ونقاش صعب لأيام طويلة؛ تعب سلمان وعانى كثيرًا حتى أقنع والده وحصل على موافقته على سفر العائلة، لينهي الوالد عناده بسؤال متواضع:

- من سيسافر من أسرتنا، هل أنت وحدك؟
- لا يا أبي سنسافر نحن جميعًا وعلى وجبتين، في الأولى أنت وسلمى والأطفال إلى الأردن كمحطة انتظار مؤقتة، وهناك سيكون باستقبالكم من يُعتمد عليه بمساعدتكم ويسهل أموركم، ويزودكم بجوازات سفر جديدة تطيرون بها إلى أسبانيا، ومن هناك ستكملون سفركم برًا إلى السويد عبر فرنسا وألمانيا والدانمارك.
- بجوازات سفر جديدة من الأردن إلى أسبانيا؟ وجوازاتنا هذه ماذا عنها؟

- جوازات السفر العراقية توصلكم إلى الأردن فقط وهناك تنتهي صلاحيتها، لم يعد مرغوبًا بها في السفارات الأجنبية والمطارات الدولية، سنشتري لكم جوازات سفر أوربية غيرها.

- تقصد جوازات سفر مزورة نشتريها من أسواق الأرصفة... أليس كذلك؟

- نعم هو كذلك.

- وأنا في هذا العمر أقترب من السبعين أسافر بلا جواز وبرفقة امرأة وثلاثة أطفال، أصغرهم مازال رضيعًا في سنته الأولى، نعم نسافر... طيور بلا أجنحة.

- نعم، هكذا هو الحال اليوم يا والدي العزيز، أرجو أن تصبر كثيرًا وتثق أكثر وتطمئن لما رتبت وخططت، غايتنا راحتكم وسلامة وصولكم بأمان فلا تقلق، صحيح في الطريق بعض المشاكل والصعوبات لكنكم لستم وحدكم إنما معكم مرافق ودليل حتى الخطوة الأخيرة.

- لست أدري يا ولدي يبدو إنك دبرت كل شيء سرًا، وفي النهاية جئت لتضعني أمام الأمر الواقع، هه... البحر من ورائكم والعدو من أمامكم!

- كما قلت لك يا أبتي سأسافر معكم إلى عمان، وهناك سيستقبلنا صديقي حازم وأنت تعرفه جيدًا، وهو من سيتكفل بمساعدتنا في جميع الأمور، ولن أعود إلى بغداد حتى وصولكم إلى مطار مدريد، حيث سينتظركم هناك شخص فرنسي من أصل جزائري اسمه رباح بو دربالة، وهذا لن يدعكم ويتخلى عنكم حتى يسلمكم إلى محروس أوغلو، وهذا ألماني من أصل تركي وهو من سيوصلكم من برلين حتى يستلمكم منه مظفر شقيق سلمى في مدينة سمرس هامن في أقصى جنوب السويد، ولن يستلم المهرب المبلغ المالي المتفق عليه والمحفوظ في الأمانات لدى مكتب صرافة محايد حتى نتأكد من وصولكم، هذا هو اتفاقهم مع حازم جزاه الله خيرًا نيابة عنا، وبذلك لا تخشى من بحر خلفك ولا تهاب من عدو أمامك، أما أنا وأمي فسنتبعكم على هذا الطريق حين أنتهي من أعمالنا المعلقة، والوفاء بالتزاماتنا، وتصفية حساباتنا المالية وبيع معمل النجارة، وهذه الدار التي نسكنها، حتى نتمكن من توفير

المبالغ اللازمة لتغطية كلفة إقامتنا في الخارج ونفقات طريقنا الطويل.

• • •

لم تتأخر مغادرة الوجبة الأولى من العائلة كثيرًا، لكنها تأخرت كثيرًا في الطريق مع كم هائل من المتاعب وحفنة من الحوادث المؤسفة التي لابد منها حتى وصلت لمقصدها الأخير.

مساء يوم خريفي حسنة أنواءه، صافية أجواءه، طيبة نسائمه؛ واجه سلمان والدته مستبشرًا خيرًا وابتسامة عريضة تطرز شفتيه هاتفًا:

- يا أمي... يا أمي... البشرى يا أمي... البشرى يا أمي.
- البشرى؟! هيا أخبرني وبسرعة، هل وصل والدك وأهلك بسلام وأمان؟
- نعم يا أمي هو كذلك، لقد وصلوا بسلام وأمان وسجلوا وجودهم بالأمس في دائرة الهجرة في مدينة مالمو.

- الحمد لله... الحمد لله، وأخيرًا وصلوا بعد أكثر من ثلاثة أشهر على مغادرهم بغداد، لا أكاد أصدق، لكن لماذا تأخر وصولهم وأخذ كل هذا الوقت؟

- نعم يا أمي، أنتِ لا تعلمين بالمشاكل والصعاب التي واجهتهم في الطريق، أخفيتها عنك ولم أحدثكِ عنها،كنت أخاف عليك من الصدمة، أعلم جيدًا أنك لا تستطيعين سماع مثل هذه الحوادث والصمود أمامها فأثرت السكوت متحملاً المسؤلية وحدي، وكنت حينها في قمة الخوف وغاية القلق، والآن مضت كل الحوادث ومضت معها كل همومها، وما علينا الآن إلا أن نشد الهمة ونعجل باللحاق بهم، بعد أن أخذت الوقت الكافي وزيادة لإنجاز المهام التي تخلفنا من أجلها، الآن أنا جاهز للرحيل، ماذا عنك يا أمي العزيزة؟

- أنا أيضًا جاهزة وعلى أتم الاستعداد للرحيل، لكن حدثني أولاً عن هذه الحوادث والمشاكل التي رافقت رحلتهم، ولا تقلق بشأني مادامت قد ولّت وصارت من الماضي.

- في البداية ولتجنب سيطرة مفاجأة مشتركة للشرطة الفرنسية والأسبانية؛ هرب بهم الدليل صوب منطقة وعرة شبه جبلية

على حدود البلدين، ولحسن الحظ كان بالإضافة لهم وبرفقتهم شابان من المهاجرين العراقيين، سقطت سلمى على إثرها من فوق صخور عالية، تسبب هذا بكسر بسيط غير مضاعف بذراعها الأيسر، ورضوض وكدمات متفاوتة الشدة في أماكن أخرى في الصدر والأطراف، مما تسبب في ضياع الكثير من الوقت وتأخرهم في منطقة منعزلة نوعًا ما، هذه فرصة استغلتها الذئاب وطاردتهم مسافة لا بأس بها، وكادت أن تلحقهم وتفتك بهم، انتبه القرويون والحراس على فوضى الذئاب واقتراب أصوات عوائها غير المألوف فهرعوا إلى نجدتهم وإنقاذهم، حادث آخر لا يقل خطورة عن الأول، حين تسربت المياه داخل الزورق المطاطي الذي استخدموه للانتقال من جزيرة دانماركية إلى البر السويدي، وكاد الغرق يكون مصيرهم الحتمي لولا قصر المسافة وجهد الشباب الذين مزقوا ملابسهم لتنشيف الماء وسد الفتحات والشقوق الصغيرة في جسم الزورق، هذا كل شيء باختصار والتفاصيل مؤجلة لمناسبة أخرى.

فأجابت الأم بذهول:

- أوووووه... أووه، بقيت ساكتًا صامتًا على كل هذا البلاء ولم تخبرني إلا الآن؟!

- نعم يا أمي، كما يقال كلما سمى الغرض هانت المشقة، الحمد لله الحي العظيم أولاً وأخيرًا، ثم لصديقي الأمين المخلص حازم الذي ما كنت لأعمل شيء بدونه، هو لا يعمل مهربًا للبشر ولا وسيطًا لهم إنما جرب هذا المهرب المقيم في اسطنبول مرتين وتحرك لأجلنا في الثالثة.

• • •

لم يدم انتظار سلمان وأمه طويلاً بالمغادرة والسفر كطيور مهاجرة لكن بلا أجنحة، وبأقل من شهرين وطأت أقدامهما سواحل مدينة سمرس هامن الصغيرة في أدنى جنوب السويد.

كان الطقس البارد جدًا تحت درجة التجمد أول ما لامس حواسه، تحت وطأت الثلج المتراص الصفوف المتصل ببعضه كأنه قطعة واحدة، أفقيًا وبلا أعمدة تعلق بالسماء وصبغها بالبياض، كأنها صنعت من ثلج وعندها المزيد المزيد تهدد به الأرض،

ويفترش الأرض المنبسطة أمامه على مد النظر فاتحة ذراعيها وصدرها الرحب تتحدى السماء تطالب بالمزيد المزيد!

وبين السماء والأرض تعلق الثلج وعانق كل ما كان وتواجد تحته على الأسطح المائلة للبنايات الجميلة، نباتات الحدائق، شجيرات الأرصفة، الأشجار العالية بطولها الفارع التي تقبلت وضعها بتواضع وتنازلت بسرور عن أوراقها الخضر، واستبدلتها بحبات ثلج ناصع البياض، تناثر على أغصانها كالبلور يعكس الضوء المتساقط عليه بكل اتجاه كلما هزته ريح، هذا هو حال السيارات المتوقفة والمتحركة وملامح المكان وكل ما تقع عليه العين!

أبيض... كل شيء أبيض كأنها صورة متقنة لرسام ماهر لا يملك لها غير اللون الأبيض والقليل القليل من ألوان أخرى برزت بوضوح، وإن شحت فزادتها رونق وبهاء، يالها من صورة جميلة، ويا له من منظر بديع أدخل الغبطة في قلبه والسرور في نفسه، جعله ينسى ولو لبرهة قصيرة من الزمن ما هو وأمه عليه من وهن وتعب وشعور بالبرد القارص.

خطى الغريبان أول الخطوات على البر السويدي، خطوات قليلة اعترضتها مساحة صغيرة نفحتها رياح الليل وأحالتها إلى لوح

جليدي متجمد، يشبه لوح زجاج مطروح على الأرض، ظن المشاة وبدون تجربة سابقة أن السير عليه سهلاً كالسير على الأرض، ولا يختلف كثيرًا، لكن المفاجأة كانت بانتظارهما بزلات أقدام أرغمتهم على التقارب والتلاحم، ليسند أحدهما الآخر تجنبًا لسقطة مؤلمة ومتابعة المشي بهدوء وتأني حتى اجتياز العقبة إلى بر الأمان.

أول أشخاص، رجال ونساء قابلهم سلمان من أبناء الشعب السويدي المتواضع الكريم؛ هم أولئك النشامى الذين شحذوا الهمم لإزاحة أكداس الثلوج المتراكمة في الشوارع بالجرافات والمكائن الثقيلة ذات الضجيج العالي، وعن الطرقات والأرصفة بالجرافات اليدوية البسيطة لإفساح المجال لمرور آمن للسيارات والمشاة، كان هذا منظر رائع وبديع غير مألوف في بلاد حارة جاء منها، لا يعرف مناخها الثلج، ليعبر عن فرحته وإعجابه هتف بصوت معقول يخاطب الحرية كأنها شيء مادي شاخص أمامه، بحركات يؤديها كأنه يؤدي دور على خشبة المسرح:

- مرحبًا أيتها الحرية، أنا أحبك وأرتمي الآن بين أحضانك، أحبك أكثر من حياتي، من أجلك غادرت وطني وهجرت أرض آبائي وأجدادي، مهد طفولتي وقلعة ذكرياتي، أرض صيفي

الطويل وحره اللاهب لأرتمي على ثلوج شتاءك البارد، من أجلك نفضت شفتاي الصمت المكبوت وأفرغت خزينه، وانتزعت قيود ما لا يجب أن يقال وما لا يجب أن يسمع، لأجلك اضطربت أحاسيس نفسي وتفتحت أبواب قلبي وتدفقت ينابيع أفكاري، لأجلك مشيت الليل والنهار متسللاً أجوب أعماق الغابات وأطراف الجبال في دروب لا تسلكها غير الأشباح والأرواح الشريرة، ومشيت على أرض العفاريت والأفاعي والسباع الكاسرة، هذا هو حبي لك، حبي لك ليس نزوة عابرة إنما هو حب الجسد للروح حيث يفنى بدونها، وحب المؤمن لحقيقة إيمانه، إنه الحب المقدس الذي لا قدرة لطغاة هذه الدنيا في ولوج أعتابه أو يمسوا ظله، أيتها الحرية، اليوم ولدت معك من جديد وأبصرت عيني شعاع شمس جديدة.

في وقفة انتظار والده وزوجته القصيرة؛ خلع سترته وألبسها لأمه حين وجدها ترتجف بردًا بمواجهة ريح باردة، مع أنها كانت ترتدي سترة صوفية ثقيلة رمادية اللون فوق فستان أسود غليظ وطويل حتى كعوب الأقدام، غطى جسمها بأجمعه، ودفنت قدميها في حذاء جلدي طويل، وأخفت كفيها بقفازين، ولفت

رأس بخمار أبيض مزين برسوم الورد؛ تدلى طرفاه على ظهرها من الخلف وصدرها من الأمام، في ملبسها هذا ابتغت الحشمة والدفء، وتجنبًا للبرد، وأهملت الزينة، ومع هذا لامست البرد وبدت في قمة الأناقة!

• • •

في السويد حيث استقرت الأسرة وحصلت على الإقامة الدائمة والسكن المناسب، التحق أفرادها في مدارسهم كل حسب عمره، الكبار في المدارس الشعبية لتعليم اللغة السويدية **sfi**، وفي المدرسة الابتدائية للأطفال لمن في السابعة فما فوق، أو رياض الأطفال **Degis** للأقل عمرًا، كخطوة أساسية أولى في طريق الانصهار والاندماج في المجتمع الجديد، وتمنح الفرصة للحصول على عمل مناسب، تتبعها خطوات ثانوية أخرى في الطريق كالدمج الثقافي أو مع البيئة والمناخ...إلخ.

يساعد على هذا التساهيل والمساعدات المادية والمعنوية التي تقدمها بموجب القانون دائرة الهجرة والبلديات **Kommun** والرعاية الاجتماعية **Social**، وروح التعاون من قِبل الموظفين فيها المتسم بالصراحة ورحابة الصدر.

هكذا كانت أمور اللاجئين تجري منذ الخطوة الأولى، حين كانت البلاد بحاجة لهم، وهم ركن رئيسي من أركان استمرار تقدمها وازدهارها، فهل سيستمر الحال هكذا أم سيتغير بعد أن تكتفي السويد منهم ولم تعد بحاجة لهم[1] وحالهم عبء ثقيل عليها، ويزداد ثقلهم ويتعاظم بزيادة وتعاظم أعدادهم، خاصة بعد تعاظم موجات الهجرة بسبب الحروب المستمرة والمحن الدائمة التي تعيشها مناطق مختلفة من العالم وانتكاسات الاقتصاد العالمي وكلمات مثل انكماش، تضخم، كساد، إفلاس، بطالة... وكلمات أخرى مشابهة صارت تطرق مسامع الناس في كل وقت وحين، وتخيفهم وتنغص عليهم حياتهم والسويد كبلد وشعب ليس بمنأى عن التطورات الخارجية، كذلك الآثار السلبية المتخلفة عن تصرفات وممارسات الكثير من المهاجرين أنفسهم وبنسبة عالية منهم، لقد شبعت دوائر الدولة ومؤسساتها كذب وتزوير إلى حد التخمة، لم يعد التمييز بين الصدق والكذب ممكن، وضاع الجيد بزحمة الرديء واحترق الأخضر بنار اليابس!

---

[1] - كتب هذا قبل الأزمة السورية.

السويد... بلد مضياف لمئات الألوف من الهاجرين الجدد بصفة لاجئين[1]، بعد أن ضاقت بهم بلدانهم ولم تعد تسعهم، خرجوا منها بوفاض خالٍ، يستقبلهم ليكون الملاذ الآمن لهم، موفرًا السكن النظيف المريح، ودعم مادي بمقدار مناسب لمستوى معاشي معقول ولو بالحدود الدنيا، مئات الألوف بازدياد سنوي مستمر حتى طال المجتمع السويدي الملل منهم أو كاد، مجتمع تلاشت به الجريمة فلا سرقة ولا قتل أو اغتصاب وانتهاك للأعراض ليتجدد كل هذا وتعود براعمه للظهور والنمو على يد المهاجرين!

انخفاض نسبة الجريمة وتلاشيها تمامًا وثبات الديمقراطية وترسيخ مباديء حقوق الإنسان بالعدل والمساواة؛ حررت شعوب العالم المتمدن من قيود الذل والعبودية، ومزقت ثوب الطغيان وجعلتهم أناس صالحين واعين متواضعين متحابين متعاونين، فيهم الرحمة على بعضهم وعلى غيرهم، تحلوا بالحنان والتسامح وتناسوا الظلم والزور والبهتان، كلهم لطفاء طيبون لا إساءة فيهم ولا خداع

---

[1]- يقترب نفوس السويد من عشرة ملايين نسمة، فيهم ٧% مهاجرين أو من أصول مهاجرة، ويتوقع لهذه النسبة بالتزايد لتصل إلى ١٥-٢٠% حتى أواسط القرن، بسبب استمرار الهجرة وارتفاع معدل الولادات الكبير عند نسائهم وانحسارها عند السويديات..

بينهم، لا للخطأ يعمَدون ولا للخطيئة يهرعون، بالأمن والأمان ينعمون وبالعز يرفلون، لا عد لفضائلهم ولا قياس لشمائلهم، عدل بينهم، سلام في ربوعهم، إيمان في قلوبهم...

هذه هي الحضارة وهذه هي المدنية، لا حضارتنا التي سادت بالسيف وبادت به، ومازلنا نتغنى بها وبأمجادها، هكذا كان أجدادنا قبل آلاف السنين، وهكذا كنا وهكذا... وهكذا.

أليس الالتفات إلى الخلف ضعف؟ نحاول السير والتقدم إلى الأمام شاخصين بأبصارنا إلى الخلف فنتعثر بقشة تعترض طريقنا، فنقع منكفئين على وجوهنا وقد سالت منا الدماء وشمت بعضنا ببعضنا وسخر منه، فساءت أوضاعنا وتدهورت أمورنا وتشتت إرادتنا وضاعت هيبتنا، وتكالب علينا أعداءنا وعشنا في جهنم وبئس المصير في الدنيا، ولا حاجة لنا بعد اليوم بوقوع الساعة.

نسينا كيف نعيش يومنا ونهنأ به، وانشغلنا بالتصفيق والتهليل لأنظمة دكتاتورية دهمت غيومها فوقنا وحجبت النور عن بصرنا وبصيرتنا، وألبستنا ثوب العبودية، واعتمرنا أكاليل الشوك وعمائم العليق وكبلتنا بقيود والذل والهوان... لا تسامح ولا رحمة عندنا، لا عدل بيننا، لاسلام في ربوعنا...

ما ينقصنا... وما يعوزنا؟!

كل شيء متوفر عندنا، وهبنا الله من نعمه ولم يحجب خيراته عنا، وحاشاه أن يبخل علينا...

إذن... لماذا لا نكون مثل أُمم غيرنا... وأحسن؟!

هذه كلها أفكار تدور بمخيلة سلمان وتداعب ضميره عن معطيات واقعية كان يعيشها في العراق ويقارنها بما يلمسه في السويد التي يتزايد إعجابه بها يوم بعد يوم، كدولة حديثة متطورة، ارتضت الملكية الدستورية بقيادة برلمانية جماعية كنظام حكم، وبالشعب السويدي المتواضع باقتدار، الكريم المعطاء، العارف لحقوقه المتفهم لواجباته، المطيع بلا تذمر للنظام والقانون، الأمين على سلامة وأمن وطنه ومواطنيه، الحريص على المال العام، المخلص في عمله، المنفتح على العالم، المتقبل لكل ما هو جيد وحسن، الرافض لكل ما هو مبتذل ورديء!

• • •

الآن سلمان في التاسعة والثلاثين من عمره، الوضع الصحي لعينيه يزداد سوء سنة بعد أخرى، وممارساته اليومية تزداد صعوبة وهذا

ما يزعجه ويتعبه ويقلق أسرته، وصار لزامًا عليه مراجعة المستشفى العام في مدينة سمرس هامن، وهذا ما تم فعلاً.

في الموعد المقرر وصل سلمان إلى المستشفى برفقة ولده رامي (عشر سنوات)، سأل موظفة الاستعلامات بما استطاع عليه من كلمات قليلة بالسويدية:

– لو سمحتِ من فضلك... أين يقع قسم العيون؟

– هناك في نهاية هذا الممر، يمكنك استعمال المصعد الكهربائي بجوار السلم إلى الطابق الرابع، أو انتظر قليلاً سيحضر من سيساعدك.

بدقيقة جاءت ممرضة وأخذته بيدها، ولم تتركه حتى سلمته للممرضة المسؤولة في القسم.. جلس في غرفة الانتظار حتى جاء دوره ونوديَّ باسمه:

– سلمان داود...

– نعم...

– تفضل...

أخدته الممرضة وأجلسته على كرسي الفحص، استقبله شخص آخر مرحبًا ومعرفًا نفسه قائلاً:

- أنا هادي أحمد، مترجم مُحَلف أقوم بالترجمة، واجبي الحفاظ على سرية اللقاء.

- شكرًا جزيلاً لك أخي العزيز هادي.

قالت الممرضة:

- سأجري بعض الفحوص الأولية الضرورية حتى يحضر الطبيب.

استمرت الممرضة بعملها، وبين خطوة وأخرى واظبت على توجيه الأسئلة، وسلمان يُجيب والمترجم ينقل ما يدور بينهما من اللغتين العربية والسويدية باتجاهين متعاكسين حتى انتهت وحضر الطبيب فشرحت له ما توصلت له من نتائج، استدار إلى مريضه ليكمل مهمته لكن المفاجأة كانت له بالمرصاد، مفاجأة وأية مفاجأة هذه؟!

وقف الطبيب أمام المفاجأة المذهلة، وأطال الوقوف، حيّره أمره، إنه الآن يعيش لحظات حرجة وضعته بين الحقيقة والخيال بين مُصدق لما يرى ومُكذب، واستمر في دهشة وذهول حتى اضطرت الممرضة إلى هز كتفه هزًا خفيفًا كأنها توقظه:

- دكتور... يا دكتور... ما بك يا دكتور، هل تعاني من...

فرد الطبيب مقاطعًا بارتباك، واستدعى المترجم ليقف إلى جانبه:

- لا... لاشيء أبدًا شكرًا لكِ يا ماريا... تعال معي يا هادي.

ثم توجه بحديثه إلى سلمان والمترجم بينهما:

- مرحبًا سلمان... كيف الصحة والأحوال؟

- الحمد لله، شكرًا لك دكتور.

- منذ متى وأنت هنا في السويد وهل حصلت على الإقامة؟

- منذ خمسة أشهر وحصلت على الإقامة منذ أقل من شهرين.

- وهذا الصَبيّ هل هو ولدك البكر رامي؟

- نعم هو... لكن ما أدراك... وكيف عرفته؟

- شخص مثلك لا يمكن أن ينسى أبدًا.

- هه... أنا... أنا من يجب ألا ينسى، وماذا يميزني حتى أبقى في ذاكرتك وذاكرة غيرك؟ ولست من نجوم السينما ولا فرسان السياسة أو قادة الحروب!

- لا تقل أهمية عنهم، وفيك أشياء كثيرة ليست عندهم، ألست سلمان داود الأسير رقم ١٣.

وبسرعة... انتقلت بوادر الدهشة والذهول من وجه الطبيب الذي استبدلها بابتسامة عريضة توجت شفتيه إلى وجه سلمان، الذي نهض من مكانه كالملدوغ:

- ماذا... ماذا تقول؟ هل أنت الأسير رقم واحد الدكتور فرهاد كريمي؟

- نعم أنا هو والله...

مواقف كهذه في لحظات حرجة كهذه لا تقع أبدًا... وإن وقعت فلن تتكرر...

التحم الاثنان في عناق لا مفك منه ولا نهايه له، هكذا كان الأمر يبدو وهكذا ساد الاعتقاد عند الممرضة ماريا والمترجم هادي اللذان أبهرهم هذا الحدث، انبرى المترجم يسأل الممرضة:

- ما الأمر، وماذا يجري هنا؟

- لست أدري... ربما وجد أخ أخيه وعثر عليه بعد ضياع طويييييل.

- أي أخ... أي ضياع هذا؟ أحدهما إيراني والآخر عراقي، والحرب وإن توقفت منذ خمس سنوات لكن الدماء مازالت ساخنة والعداء ثابت.

سمع الطبيب حديثهما وإلتفت برد مُقنع وجاهز:

- نعم كل ما قلتماه صحيح، كان لقاءنا قصير في عمره، خمسة أو ستة أيام فقط، عميق لا تمحى آثاره، وفراقنا دام عشر

سنوات كاملة، مرت دهور علينا لكننا لم ننسَ بعضنا، كأنها عشر أيام، كل هذا جعلنا أقرب من الإخوة وأكثر من أصدقاء، نحن الأسرى الثلاثة عشر، لا أدري ما إذا كانت حكايتنا طويلة أم قصيرة هذا لا يهم، لكنها فريدة في وقائعها، وليس لها مثيل، نحن فيها أبطال المودة والمحبة بين الشعوب، ورسل للسلام بين الأمم.. هل تعتقدان ومِن خلفكم العالم بأسره أن العداء بين العراق وإيران عداء شعوب وأمم؟ لا والله... لا أبدًا... إنه عداء زعماء سياسة فاشلين وقادة حروب طامعين، يريد كل واحد منهم تبريرًا لفشله وطمعه فيسعى إلى فرض أفكاره وآراءه على الآخرين، بتصدير الثورة أو إرادته في القتال، والوسيلتان ظلم وعدوان.

لم يفهم سلمان شيء من حديث فرهاد كريمي فسأله مستفسرًا:

- ما الأمر؟

- لا شأن لنا بهم وبالدنيا كلها دعنا بشأننا، تعال معي إلى البيت لنتغذى معًا ولأحدثك عن رفاقنا الأحد عشر، اثنان منهم هنا في مالمو، وثالث في كوبنهاجن ستقابلهم الليلة، والباقون في إيران، سنؤمن لك اتصالات هاتفية وستتحدث إليهم.

ثم التفت إلى الممرضة يسألها:

- هل من مواعيد متبقية لهذا اليوم؟
- لا يا دكتور، اليوم الجمعة ونحن فى أخر الدوام.
- حسنًا... نودعكم الآن وعطلة نهاية أسبوع سعيدة.

اعترضهما المترجم متسائلاً بأسلوب ساخر بوضوح، وصاغ سؤاله باللغتين العربية والسويدية:

- هههههه وبأي لغة تتفاهمان، لعلكما بحاجة إلى مترجم، سأتطوع لخدمتكما مجانًا مقابل ما سأتناوله معكما من طعام وشراب، هههههه أوفر لكما فرصة ثمينة لا يجب أن تضيع هههه.

أجابه سلمان بذات الأسلوب:

- هههههه لسنا بحاجة لمتطفل علينا، عندنا لغة خاصة ومتميزة كنا نتفاهم بها تلك الأيام، وسنعيد استعمالها الآن؛ اسمها اللغة الزلاطة.
- لغة الزلاطة؟! ماذا عن هذه اللغة؟! لم أسمع عنها من قبل، تبدو عجيبة غريبة وهذا واضح من اسمها العجيب الغريب؟!

- وهو كذلك، هذه لغة تتكون مفرداتها من اللغات العربية، الفارسية والانجليزية ولهذا سميت بالزلاطة، ومن اليوم سنضيف لها مفردات من عبق ورحابة اللغة السويدية لتبدو أطعم وأشهى وبنكهة طيبة.

نقل المترجم باسمًا ما قاله سلمان إلى السويدية فأشاع نوعًا من الغبطة والسرور أضحك الجميع، فأضاف دكتور فرهاد معلقًا:

- أو لا بأس سنوافق على اقتراحك يا هادي وسنتطوع لمساعدتك على تعلمها والنطق بها بالأساليب والطرق الحديثة، على أن تدفع فاتورة الطعام والشراب الذي ستشاركنا به.

على هذا النحو وفي هذه اللحظات السعيدة توادع الجميع مع أطيب الأمنيات بأوقات هانئة وعطلة نهاية أسبوع سعيدة.

يد بيد غادر الصديقان دائمًا، والأسيران سابقًا، غرفة الفحص والمستشفى، هبوطًا عبر المصعد الكهربائي إلى رحبة السيارات، والصبي رامي يجري خلفهما كأنه ليس معهم أو واحد منهم، من هنا ترقبهما عينا ماريا الجميلتان، حتى رددت جدران الغرفة ومحتوياتها أصداء ضحكتها الرقيقة الناعمة بلحن رائع بديع، مما أثار استغراب المترجم هادي فسألها بفضول:

– ما الخبر وما الذي يُضحك ماريا... وهل لنا بالمشاركة؟

أجابت بابتسامة مشرقة على شفتين جميلتين تُعمران الوجه الصبوح:

– انطلق الدكتور فرهاد وإلى جانبه صاحبه العراقي ونسيا الصغير على الرصيف الجانبي يُنادي ويجري خلفهما، ها هما يتوقفان، فتح الباب الخلفي وانضم إليهما، يا لها من مواقف غريبة وطريفة فيها الكثير من المتعة مرت بنا هذا اليوم، لا ولن أرتاح أبدًا حتى أتعرف على حكاية الأسير رقم ١٣....



المؤلف في سطور

- روائي وكاتب عراقي ولد في البصرة صيف ١٩٥٤، مقيم حاليًا في السويد.
- "الفصلية" الرواية الأولى من سلسلة روايات "رغبات صامتة" صدرت في بداية عام ٢٠١٧، يتبعها في العام نفسه "ثوب الورد" الرواية الثانية من سلسلة "رغبات صامتة"، بالإضافة إلى هذه الرواية.
- يتبعها روايتان عام ٢٠١٨، هما: "لا تعتبي" رواية شعرية بأسلوب متجدد في الأدبين العربي والعالمي، و"وجدته.. ولكن" وهي الرواية الثالثة من سلسلة "رغبات صامتة"، وتصدر كلها بالتعاون مع مؤسسة شمس للنشر والإعلام بالقاهرة.
- له عدة دراسات وأبحاث في طريقها للنشر.
- البريد الإلكتروني: haseb.alkamese123@gmail.com



(+2) 02 27238004 /(+2) 01288890065

www.shams-group.net